ذكريات طه حسين



ثروت أباظة


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

ذكريات طه حسين

تأليف
ثروت أباظة





ذكريات طه حسين

ثروت أباظة

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٧١ ١

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



تُرى هل فكر يومًا أن صورته ستُنشر كوالد طه حسين؟



الدكتور طه حسين وحرمه وولده مؤنس مع كريمة مؤنس (ليلى)، القاهرة ١٩٥٧م.



طه حسين، وزير المعارف، في زيارة رسمية لليونان ١٩٥٠م.



في روما، ديسمبر ١٩٥٠م.



في حفل زواج ابنته أمينة والدكتور محمد حسن الزيات مع مصطفى النحاس باشا وأحمد لطفي السيد باشا والعروسين، يونيو ١٩٤٨م.



مع زوجته ونجله في إجازة.



جامعة أكسفورد تمنحه الدكتوراه الفخرية عام ١٩٥٠م.



طه حسين وحامد العلايلي والد زوجة مؤنس (ليلى) في حفل زواج مؤنس، يونيو ١٩٥٥م.



في زيارة رسمية لإسبانيا مع وزير المعارف الإسبانية، مدريد ١٩٥٠م.



من اليمين: مؤنس طه حسين، مدام طه حسين، أمينة طه حسين، الدكتور طه حسين، في بيت مري، لبنان ١٩٤٣م.



الدكتوراه الفخرية من جامعة روما (إيطاليا)، عام ١٩٥٠م.



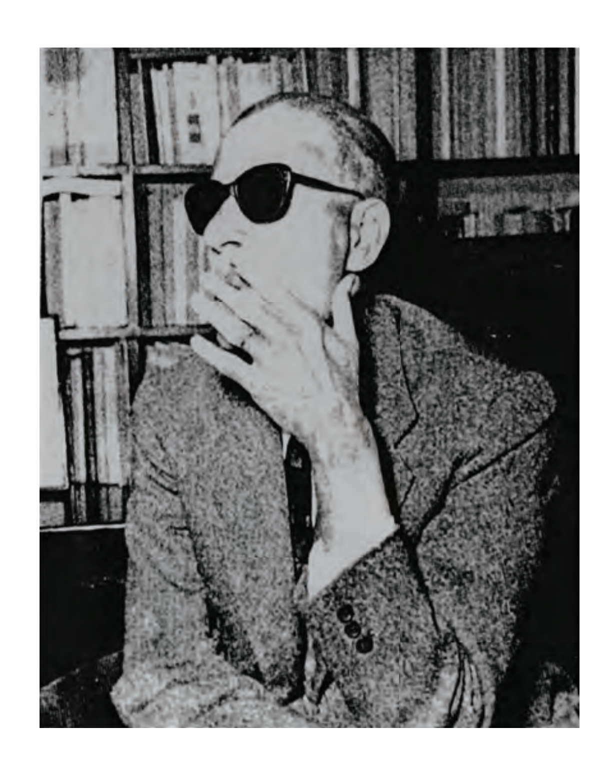
الدكتور طه حسين ومدام هيلين كيلر؛ اثنان استقبلا الحياة دون أن يريا الحياة.



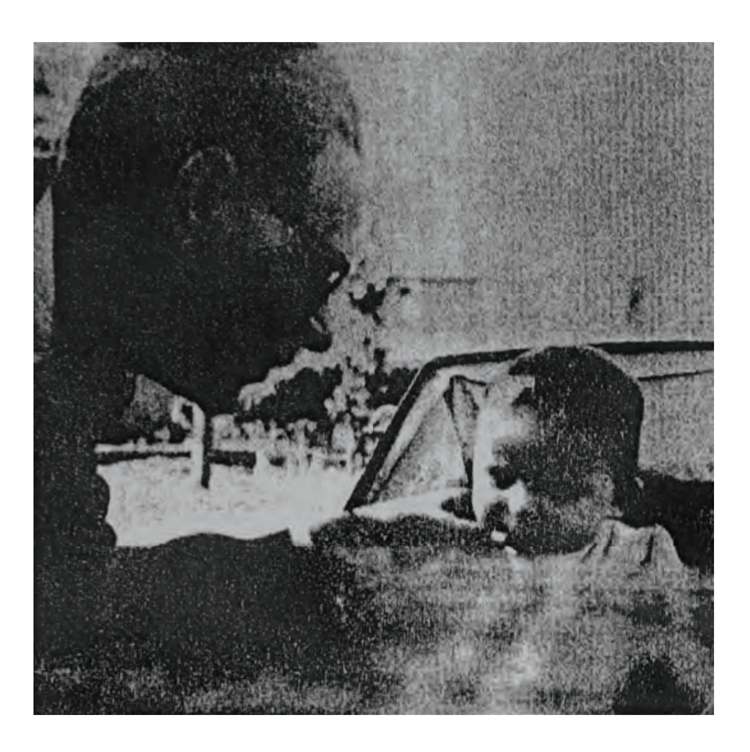
في رحلة.



في إيطاليا، فلورنسه، ١٩٥٦م.



تفكير ... ومتعة.



مع حفيده «حسن الزيات»، الإسكندرية عام ١٩٥٠م.

١

كُنا في بيت أبي نتنفس الأدب مع الهواء، فأنا لا أذكر منذ متى سمعت اسم طه حسين، ولكن الذي أذكره في ثقةٍ أن اسمه وصل إلى أذنيَّ محفوفًا بالإجلال والإكبار منذ وصل؛ فقد كان أبي — رحمه الله — يعجب به أشد الإعجاب، على رغم الخصومة السياسية بينهما، ولكن أبي كان من هؤلاء القلة النادرة التي تستطيع أن تضع الرجال في أماكنهم الصحيحة العادلة، دون نظر إلى خصومة أو صداقة.

فالدكتور طه مثلًا هاجم الأسرة الأباظية في يوم من الأيام حين نقد شعر حافظ إبراهيم، فذكر أن قصائده في مديح الأباظية مثل مديحه لملكة الإنجليز، وقد رد أبي على هجومه غاضبًا أن يشبهنا الدكتور طه بالإنجليز.

وقد جاءت الخصومة السياسية حين انضم الدكتور طه إلى الوفد، بعد أن كان من عُمد جريدة السياسة التي كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين، ويرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل، وقد توطدت الصداقة بينه وبين أبي في ذلك الحين، وقد ذكر الدكتور طه في حديث من أحاديث الأربعاء أن مجلس تحرير جريدة السياسة كان مجتمعًا، وكان النقاش يدور حول الرد على مقالة كتبها الأستاذ أبو شادي عنوانها «ما قول فئة ما قولها»، يهاجم بها الأحرار الدستوريين، وبينما كانوا يبحثون في منهج الرد ومن الذي يتولاه، يقول الدكتور طه حسن إن دسوقي أباظة طلع عليهم بمقالة يرد بها على الهجوم عنوانها «ها قولُ فئة ها قولها» أغنتهم عن التداول في منهج الرد وفيمن يكتبه.

وانفصل الدكتور طه عن الأحرار الدستوريين، وبقي أبي طبعًا سكرتيرًا عامًّا للحزب، ويبدو أن هذا الانفصال جعل الصلة بين الرجلين تَهِن؛ فأنا لم أرَ الدكتور طه في بيتنا أبدًا ولكن اسمه كان يملأ بيتنا كما كانت كتبه.

وحين شببْتُ عن الطوق أصبحت أنا أشتري هذه الكتب وأعطيها لأبي يقرؤها أولًا ثم أقرؤها من بعده، فإن كان مشغولًا قرأتها أنا أولًا ثم أعطيتها له، ولا أذكر أنني وجدت أحدًا معجبًا بالدكتور طه حسين الأديب إعجابًا جارفًا، لا تحفُّظ فيه ولا قصد، مثلما كان أبي مُعجبًا به. وقد تلقَّيت هذا الإعجاب عن أبي كما يتلقَّى كل ولد رأيَ أبيه بلا تحفُّظ ولا قصد ولا بحث، حتى إذا قرأت له ولغيره أصبحت مُعجبًا به نفسَ هذا الإعجاب عن فَهم تام بما أقرأ، وعن ثقة عميقة بأنه خليق بهذا الإعجاب وأكثر، إن كان هناك أكثر.

وأذكر فيما أذكر أننا كنا نصطاف في رأس البر، وكنت آنذاك تلميذًا في المرحلة الثانوية، وكان يصطاف معنا عمي المستشار جمال الدين بك أباظة، وهو رجل لا مثيل له في حب الأدب؛ فقد كان يحفظ، من الشعر العربي القديم والحديث حتى شوقي، مقدارًا لا أعرف أن أحدًا من الناس استطاع حفظه، وأنا من الذين يعجبون بشوقي ويحفظون الكثير من شعره، وكم حاولت أن أروي له من شعر شوقي، فما أوشِك أن أبتدئ حتى يكمل هو القصيدة بأكملها، لا يُفلت منها بيتًا! وكان كذلك أمره في جميع الشعر الذي سبق شوقي، فما كنت أستطيع أن أجعله يسمع إليَّ إلا إذا رويت له من الشعراء المحدثين، مثل طاهر أبي فاشا والعوضي الوكيل وأحمد الغزالي ومحمود غنيم، وما ذلك إلا لأنه كان حين عاصر هؤلاء الشعراء قد أصبح ضعيف البصر ضعفًا لا يمكِّنه من القراءة إلا بصعوبة شديدة. وقد قرأ جمال بك، فيما قرأ، الأغاني، وهي ما تدري حجمًا وتشعُّبَ موضوعات، وقد قرأها بإمعان حتى لقد كان يقول: إن صاحب الأغاني قال في أربعة مواضع منها: وسيأتي ذكر هذا فيما بعدُ. ولم يأتِ.

المهم أنني كُنت أقرأ لعمي جمال بك في المصيف ما يحب قراءته، وكنت أجد في ذلك متعة ومنفعة، أما المتعة فمصدرها بطبيعة الحال القراءة ورفقتي لهذا العم الذي أحببته كأب وأحبني كابن، وأما الفائدة فإنني كنت أقيم بهذه القراءة لساني حتى أتعود ألَّا أخطئ في اللغة أو النحو، إذا أنا قرأت أو تكلمت. وفي هذا العام ظهر الجزء الثالث من كتاب «على هامش السيرة»، فكنت أقرؤه لعمي جمال بك، وفي أحد الفصول بدأ الكتاب يصف مشهدًا يمهد به للقصة التي سيرويها، وقد كان الدكتور طه يحب أن يصف، تطاوعه في ذلك لغة لم يعرفها العرب قبله، ولا أحسب أنهم سيعرفونها من بعده، وكان عمي جمال بك مُتلهفًا أن يصل إلى القصة التي يسوقها الكتاب، وكان هذا الوصف يقف حائلًا بينه وبين القصة، فكان يضيق بالإطالة، ولكنه في نفس الوقت يتوق أن يسمع هذه السيمفونية من الوصف التي يعزفها الدكتور طه بالكلمات، فكان يقول: «اقفز الصفحات.» وقبل أن أطيعه يقول:

«ولَّا أقول لك، استمِر!» وهكذا تكرر تردده بين الأمرَين مرات ومرات؛ حائرًا بين رغبته في الاستمتاع باللغة ورغبته في بلوغ القصة ومعرفة أحداثها. وهكذا هو طه حسين يُرغم القارئ أن يقرأ له مهما يكن ملهوفًا أن ينصرف عنه، وإن كان سينصرف عنه إليه.

وأظنني في غنًى عن القول إنني قرأت جميع كتب الدكتور طه بغير استثناء. وأظنني في غنًى عن القول أيضًا إنني قرأت أغلب كتبه أكثر من مرة؛ فأنا من ذلك الجيل المظلوم الذي لم يجد حين نشأ كثيرًا يقرؤه؛ فقد بدأت قراءتي بكتب كامل الكيلاني وقصصه وغيرها من كتب الأطفال. ولا أستطيع أن أذكر الكيلاني وأنسى فضله على جيلنا جميعًا؛ فقد أوتيَ من البراعة في السرد وفي اختيار الألفاظ العربية وشرحها في بساطة موهوبة لم تتأتَّ لكاتبِ أطفال غيره، فإذا عرفنا أنه من أحفظ الناس لشعر العرب، وإذا عرفنا أنني لم أجد أديبًا آخر يحضره الشاهد لكل ما يسمعه أو يقوله أو يقرؤه مثلما كان يحضر الكيلاني، لَعرَفنا أن موهبة الكتابة للأطفال عنده تقف وراءها ثقافة عريضة في الأدب العربي. ولا نستطيع أن ننسى للكيلاني أيضًا أننا تعرفنا على يديه ونحن في غضارة الطفولة بشكسبير، الذي ترجم أغلب كتبه في شكل مبسط سهل ممتع وممتنع أيضًا، كما تعرفنا بقصص ألف ليلة وليلة في شكل نقي أخَّاذ.

وقد استطاعت كتب الكيلاني أن تأخذ بيدي إلى الأدب الكبير دون جهد أو عَنَت، لم يشُقَّ عليَّ أن أقرأ «الأيام» وأنا في البواكير الأولى من العمر، وإذا كنت قد قرأت «الأيام» فما أيسر أن أقرأ ما كان قد ظهر حتى ذلك الحين من كتب توفيق الحكيم والمازني وتيمور! ولعل الكاتب الوحيد الذي شق عليَّ هو العقاد رحمه الله؛ فلم أستطع أن أقرأ له إلا بجهد جهيد وعنت شديد، وقد ظل هذا شأني مع كتبه حتى الآن، ولكنني مع ذلك أقرؤها مُعجبًا مُكبرًا مهما تكلفني من المشقة؛ لأنه العقاد، ولا بد أن يُقرأ العقاد.

كُنا في ذلك الحين نقرأ لهؤلاء العمالقة، وننتظر حتى يُصدر أحدهم كتابًا آخر فنسعى إليه ملهوفين، ونتوفر عليه لا ننصرف عنه أو ننتهي منه.

حتى إذا كبرت بعضَ الشيء استطعت أن أقرأ لهيكل؛ فقد كنت إلى ذلك الحين أخاف الكتاب الضخم، وأخشى أن أمسك به فلا أستطيع أن أبلغ شاطئه الآخر، وهكذا أمسكت بكتاب حياة محمد وأنا أتوجس من نفسي ومن الكتاب خيفة، حتى إذا أمضيت في صفحاته الأولى وجدتها قد أسلمتني إلى صفحاته الأخيرة، وأنا ذاهل عن الدنيا وعما حولي جميعًا. وهكذا استطعت أن أضم الدكتور هيكل إلى الكُتَّاب الذين أقرأ لهم. وأذكر مرة وأنا في رأس البر، وقد نلت شهادة الثقافة، وكانت هذه الشهادة تسبق الشهادة التوجيهية بسنة، أمسكت

كتاب حياة محمد أقرؤه للمرة الثانية، وكنت جالسًا إلى أبي وإلى الدكتور هيكل، فقال له أبي: ثروت يقرأ حياة محمد للمرة الثانية، وأنا أنصحه أن يحاول المذاكرة للتوجيهية التي سيدخلها في عامه القادم، فقال الدكتور هيكل بسعادة: بل دَعْه يقرأ ما يريد.

والحقيقة أنني كنت أقرأ حياة محمد للمرة الثانية لا للمتعة وحدها، ولكن لأن الكتب التي كانت جديرة بالقراءة كانت قليلة ونادرة؛ فهذه الحكاية التي أرويها مثلًا وقعت حوالي عام ١٩٤٤م، وكانت الحرب الثانية تجتاح العالم، فلم يكن أحد يؤلف في العالم الغربي، فإن كان هناك من يؤلف فإن هذه الكتب لم تكن تجد سبيلها إلى مصر، وكيف للكتاب أن يجد مكانًا مع السلاح! البواخر لا تنقل إلا الأسلحة، وهيهات للكتب أن تنافس الأسلحة! ولو أن هذه الكتب كانت قد نُقلت إلى مصر لكان لا بد لها من نقلة أخرى حتى تصل إلينا. كان لا بد أن تجد من ينقلها من لغتها إلى لغتنا العربية؛ فقد كنا، نحن أبناء المدارس المصرية، إلى ذلك الحين لا نستطيع أن نقرأ وحدنا كتابًا بلغة أجنبية؛ فهذه تجربة لم نستطع خوضها إلا بعد جهد فردي كبير.

إلا أنني مع كتب الدكتور طه كان لي موقف آخر؛ فقد كُنت — وما زلت — أحب أن أعود إلى كتبه؛ لأنني أحب أن أعود إليها. وها أنا ذا اليوم والكتب تنهال علينا من كل حدب وصوب، ومن كل لغة نشاء أو لا نشاء، ومع ذلك أحب أن أعود إلى «الأيام» وإلى «على هامش السيرة» وإلى «أحلام شهرزاد» وإلى «الشيخان» وإلى «الفتنة الكبرى» وإلى «مرآة الإسلام»، لماذا؟ لأنها كتب طه حسين، ولأنني أحب أن أقرأها.

كذلك كنت وكذلك لا أزال. وقد بلغ من شغفي بأدب طه حسين أنني حين بدأت الكتابة بدأتها وأنا في الخامسة عشرة من عمري في مجلة الأسرة. وقد كتبت لها مقالة لا أذكر موضوعها الآن، ولكنني أذكر أنني بعد أن قرأتها وجدت نفسي أقلد الدكتور طه جاهدًا خلفه جهدًا لا يغني ولا يفيد، فمزقت المقالة وعزفت عن الكتابة، منتويًا ألا أعود إليها إلا وقد تخلصت من هذا التقليد. فحين عدت إليها كنت أكتب نفسي ولا أكتب تقليدًا مشوهًا لعميد الأدب العربي. وكان أول مقال نشرته بعد هذه الواقعة بعام في مجلة الثقافة، التي كانت تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكان يشرف عليها الأديب العظيم الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك رحمه الله، وقد أخذ بيدي منذ ذلك الحين وشجعني على النشر، وقد طمأنني رضاؤه عني أنني لم أعُد مقلدًا؛ فلو كنته لما قبِل أن ينشر لي؛ فالأولى به أن ينشر الأصل لا التقليد الممسوخ.

ولا أظن أنني تخلصت من أثر الدكتور، بل إنني لا أظن أنني كنت أريد في يوم أن أتخلص من هذا الأثر، كل ما أردته أن أكون أنا، فإن بقي من أدبه أثر فيما أكتب فليكن

أثر الأستاذ على تلميذه، وأثر الرائد على لاحقيه. وقد قال بعض النقاد إنني متأثر به فما كذبتهم، وأعتقد أنهم ذهبوا إلى هذا المذهب لعنايتي باللغة فيما أكتب، وأنا فعلًا أحب لغتي وأحب أن أجملها ما دام تجميلها لا يأتي مني عن صنعة أو تكلُّف أو عنف، وإنني أضرب عرض الأفق بهذا الرأي الأمي الذي يقول إن اللغة الجميلة تقف حائلًا بين القصة أو الرواية أن تصل إلى القراء؛ فإنما هذا رأي ابتدعه المتفرنجون والجهلاء من كتَّاب القصة والرواية؛ ليعتذروا عن جهلهم بلغتهم، فلو أطاقوا أن يكتبوا اللغة الجميلة ما مالوا عنها إلى اللغة الهزيلة، وإلا فكيف وصلت روايات ديكنز وفاوبير وموباسان ودودريه وهاردي إلى قرائهم؟ بل وكيف وصلت مسرحيات شكسبير وكورني وراسين؟ بل وكيف وصلت روايات طه حسين جميعًا لا أستثني منها واحدة؟

فهذا الأثر الذي يذكر النقاد أنهم يجدونه فيما أكتب من الدكتور طه؛ هو عنايتي بموسيقى الكلمة والجملة، وأحبِبْ بهذا من أثر!

وسواء كان النقاد قد فطنوا إلى هذا أو لم يفطنوا، فإني أشرُف أن أقول إن الدكتور طه هو صاحب أكبر أثر عليَّ فيما أكتب، وأحمد الله أنني استطعت، مع إعجابي به وإكباري لأدبه إعجابًا لا حد له، وإكبارًا ليس مدًى، استطعت أن أفلت من قبضته الآخِذة القوية الأَسْر؛ فأكتب نفسي ولا أكتب غيري، مهما يكن هذا الغير هو عملاق الأدب العربي وصاحب أجمل أسلوب عرفه العرب في العصر الحديث أو غير الحديث. وإنني بهذا الحمد أحقق رأي طه حسين نفسه الذي كتبه إلى كاتب قلده تقليدًا واضحًا لا شبهة فيه ولا شك، فكتب له الدكتور طه خطابًا من العجيب أن الكاتب المقلد أثبته في كتابه، قال له فيه إنه ينبغي أن يتخلص من التقليد، وأن يكون لنفسه أسلوبه الخاص به.

واللغة الجميلة تقوم بعمل آخر في القصة أعتقد أنه جدير بكل عناية؛ فالقصة والرواية والمسرحية جميعها أدب وارد على الأدب العربي ليس أصلًا فيه. فالأدب العربي لم يدرِ من هذه الألوان شيئًا؛ فقد كان الشعر يسد أقطار الحياة الأدبية على ألوان الأدب الأخرى التي ظهرت في العالم، بل إنه من عجب أن العرب لم يتأثروا بالمسرحية الإغريقية مع أنهم كانوا تجارًا كثيري الأسفار، ولا شك أنهم رأوا المسرحية فيما رأوا، ولكن على أية حال هذا هو ما حدث، وإنني أعتقد أن واجب أجيال كُتاب الرواية والقصة المعاصرين أن يثبتوا أصول الرواية والقصة في الأدب العربي، ولن يكون هذا إلا بأن تنتسب الرواية والقصة في اللغة إلى الأدب العربي الأصيل. فالمضمون في أغلب أمره يفرض نفسه من البيئة، ولكل بلد من البلاد العربية بيئتها، والشكل يفرض نفسه من الخارج، وقَل أن يهتدي روائي أو قصَّاص

عربي إلى شكل جديد، فإن فعل فإنما هي مرة أو اثنتين ثم عودًا إلى الأشكال التي أرسلها إلينا الغرب.

ولا بأس علينا أن، نحن، تناولنا هذه الأشكال بالتعديل الذي يتواءم مع أذواقنا العربية وأدبنا العربي، فتيار الوعي مثلًا بدأ حين بدأ عند جويس جملًا متناثرة لا رابط بينها ولا صلة، ولكن حين استعمله نجيب محفوظ جعل منه مونولوجًا داخليًّا مترابطًا. ونجيب حين فعل هذا كان جريئًا، ولكن هذه الجرأة واتته من طه حسين؛ فهو أول من حطم الشكل الغربي في أستاذية رائعة، وكان ذلك في كتابه المعذبون في الأرض.

«وسواء رضي القارئ أم لم يرضَ فقد كانت أم صالح حية من غير شك؛ لأني أنا أريد ذلك، وليس يعنيني ما يريد غيري من الناس، فأنا الذي أخترع صالحًا من لا شيء، أو آخُذ صالحًا من عرض الطريق؛ لأن صالحًا موجود ولأنه غير موجود. موجود في حقيقية الأمر؛ لأننا نراه في كل ساعة وكل مكان، وغير موجود في حقيقة الأمر؛ لأننا نراه في كل ساعة وفي كل مكان، وغير موجود في حقيقة الأمر أيضًا لأنه يملأ المدن والقرى، ويسرف على نفسه وعلى الناس في الوجود.

والشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، كما يقال. فأنا إذن وحدي، كما كان يقال أيضًا، أعرف من أمر صالح ما لا يعرف غيري من الناس، وأقرر أن أمه لم تترك الدار لأنها ماتت، وإنما تركت الدار لأنها طلقت. وأنا أستطيع أن أصنع بأمه بعد هذا الطلاق ما أشاء؛ أستطيع أن أدعها مطلقة تعمل خادمًا في بعض الدور، وأستطيع أن أجد لها زوجًا تعيش معه سعيدة موفورة، وأستطيع أن أسخِّرها لبيع الخضر، وقد أسخِّرها لبيع الفاكهة، وقد أكلفها أن تصنع الخبز في بيوت الأغنياء وأوساط الناس، وقد أكلفها أن تغسل الثياب في هذه البيوت، وقد أجد لها ما أشاء من الأعمال غير هذا كله؛ لأني حر فيما أحب أن أسوق إلى القارئ من حديث، ولأن القارئ مضطر إلى أن يتلقى حديثي كما أسوقه إليه، ثم هو حر بعد ذلك أن يقبله أو يرفضه، وفي أن يرضى عنه أو يسخط عليه.»

ويقول الدكتور في سطور أخرى قبل هذه ببعض صفحات: «لا أضع قصة فأُخضعها لأصول الفن، ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول؛ لأني لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن، ولا أقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث، وإنما هو كلام يخطر لي، فأمليه ثم أذيعه، فمن شاء أن يقرأه فليقرأه، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه، ومن شاء أن يرضى عنه بعدُ فليرضَ مشكورًا، ومن شاء أن يسخط عليه بعدُ فليسخط مشكورًا أيضًا.»

١

وواضح من هذه الفقرة أنه يقصد عن عمد أن يضرب بأصول النقاد التي وضعوها عرض الأفق، ومع ذلك نرى ناقدًا كبيرًا من تلامذة طه حسين يقف يومًا فينقد هذه السطور من الكتاب قائلًا: إن من القواعد القصصية المعروفة ألا يدخل الكاتب إلى القصة ولا ينبئ عن شخصه. وكأن الأستاذ يعتقد أن طه حسين جميعًا لم يكن يعرف هذه القاعدة التي لا يجهلها أحد من المشتغلين بفن القصة. ولعل الأستاذ الناقد الكبير نفسه قد تعلم هذه القاعدة من الدكتور طه حسين.

ولكن الناقد أراد أن ينقد دون أن يفكر من هذا الذي ينقده، فمثل هذا النقد يوجه إلى الكاتب المبتدئ ليتعرف الطريق، حتى إذا استوى عليه لا يجوز لأحد أن يوجهه؛ لأنه ما دام قد خالف القاعدة فلا بد أنه يريد أن يخالفها، وعلى الناقد بعد ذلك أن يرى إن كان قد أحسن أم أساء.

ومن العجيب أنني رأيت روايات بعد ذلك «لشتاينبك»، ولعله أعرف كُتاب العصر بالشكل الروائي، وأكثرهم تجاربَ فيه، قد ضرب فيها عرض الأفق هو أيضًا بهذه القاعدة، فكان يسفر عن وجهه في القصة ثم يعود إلى الاختفاء، غير حافل برأي النقاد، ولعل هذا كان في روايتيه اللتين تكمل إحداهما الأخرى «الخميس العذب وطريق السردين الملعب».

وتبعه أيضًا البرتومورافيا في رواية له حاول بها أن يحطم الطقوس التي تعارف عليها القرَّاء والكتَّاب. وإن كانت هذه الرواية لم تلقَ النجاح الذي تلقاه في أغلب الأمر روايات مورافيا.

قرأت «المعذبون في الأرض» فيما قرأت لأستاذنا الدكتور ولم أكن حينذاك أعرف قواعد القصة، ولم أكن أيضًا أعد نفسي لأكون قصَّاصًا، بل لعلي لم أكن أعرف شيئًا عن طريقي في الأدب جميعًا، فقد كنت أقرأ لأن متعتي في الحياة كانت أن أقرأ.

وأذكر أنني حين قرأت هذه السطور للدكتور طه تولاني إعجاب كبير به، بل تولتني دهشة كواحد من الناس يسمع عن البحر ثم يراه ... إنه يبهت. لعله كان يظنه ضخمًا وكبيرًا ولكنه أبدًا لن يُقدِّر حقيقة هذه الضخامة وذلك الكِبَر حتى يراه. كنت ذلك الشخص فقد كنت أُكْبِر الكاتب إكبارًا عظيمًا وأُجلُّه ... كان عمل الكاتب في ذهني المغلف بضباب الصبا شيئًا يدعو إلى الإبهار، ولكن حين قرأت هذه السطور تبينت أنه مهما يكن الإبهار الذي ينبعث من عمل الكاتب فإنه أقل من الحقيقة التي تشرق من هذه السطور. لقد وقفت أمام البحر ولم أكن رأيته.

ولا أظن أنني أبالغ إذا قلت إن كتب الدكتور طه كانت تبهرني دائمًا، بل إنني لا أبالغ إذا قلت إنها ما زالت تبهرني إلى اليوم؛ كما كانت تفعل بي في أول لقاء بيني وبينها منذ لا أذكر متى.

كل ما أذكر أنني قرأت «الأيام» في جزئه الأول وأنا في مراحل الطفولة الأخيرة وأوائل الصبا، وقد أعطانيه أبي رحمه الله. ثم قرأت «الأيام» في جزئه الثاني وأنا بعدُ في ظلال هذه المرحلة. ثم قرأتها مرة أخرى وأنا شاب في بواكير الشباب، ثم قرأتها وقرأتها لا أعرف متى، وكانت آخر مرة قرأتها فيها منذ سنوات لا تتجاوز الثلاث مع ابنتي، وهي مقررة عليها في دراستها.

وقرأت بعد ذلك كل ما كتبه الدكتور طه، وهذا شيء أشترك فيه مع كل هاوٍ للأدب في الشرق العربي.

وقد ظللت حتى شببت عن الطوق لا أتصور أنني سألتقي بطه حسين أبدًا؛ فقد كنا، نحن أبناء هذا الجيل، نتصور أن هؤلاء العمالقة من الأدباء لا سبيل إلى الوصول إليهم. فأنا مثلًا كنت أكتب في مجلة الثقافة وأنا تلميذ في نهاية المرحلة الثانوية، وبدأت أكتب تمثيليات للإذاعة وأنا في أواخر مرحلة التعليم العالي، وقد ظللت، طوال هذه السنوات الواقعة بين كتابتي المقالة وكتابتي للتمثيلية، أحضر ندوة لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكان يجلس فيها أستاذنا توفيق الحكيم، وكنت قبل أن أجلس معه في هذه الندوة أراه على قهوة أمام البنك الأهلي بشارع شريف، وكنت أتحرى أن أعبر الشارع وأقف في الناحية الأخرى أنظر إليه في إجلال وإكبار بضع دقائق ثم أنصرف. وكان من الطبيعي حين التقيت به في لجنة التأليف والترجمة والنشر أن أكلمه أو أعرِّفه بنفسي ولكني لم أفعل … خجلت أن أفعل. بل والأعجب من ذلك أنه كان موظفًا مع أبي في وزارة الشئون الاجتماعية حين كان أبي وزيرًا لهذه الوزارة، وقد دعاه في يوم إلى بيتنا لتناول الغداء، ودعا معه المرحوم الأستاذ المازني، وكان من الطبيعي أن أستقبلهما كما أستقبل كل ضيوف أبي، ولكني مع ذلك خجلت أن أستقلبهما أو أعرِّفهما بنفسي، ولم يكن ذلك الخجل يتولاني مع أي ضيف من ضيوف أبي مهما يكن شأنه، وظل الحال هكذا مع توفيق بك حتى كان يوم من عام ١٩٥٠م. كنا في ندوة لجنة التأليف والترجمة، وكانت قد انتقلت إلى المنيرة، وانقضت الندوة وخرجنا إلى الخارج، وتأخرت عن الخروج حتى يخرج الأساتذة الكبار أولًا. ولعلي شُغلت بحديث استغرق بضع دقائق مع صديقي عثمان نويه، الذي كان السبب في تقديمي إلى الدكتور أحمد أمين، وفي ذهابي إلى لجنة التأليف. وانتهى الحديث واتجهت إلى السلم، فوجدت

الأستاذ توفيق الحكيم منتظرًا في ممشى الدار، فما إن رآني حتى ابتدرني: «هل أنت فلان؟» قلت: «نعم.» قال: «إني أسمع رواياتك في الراديو ولا أترك البيت إذا عرفت أن لك رواية.» وأظن القارئ في غنًى عن أن أنقُل إليه مدى فرحتي؛ فليس إلى نقلها من سبيل. المهم أنني لم أستطع أن أكلم الأستاذ توفيق الحكيم لمدة سنوات طوال، ولم يستطع الحديث أن يتصل بيننا إلا حين بدأني هو به.

فكيف السبيل إذن إلى الدكتور طه حسين؟ قد يكون سبيلي إلى الأستاذ توفيق الحكيم ميسورًا؛ فهو يخرج إلى الناس ويجالسهم. أما الدكتور طه فقد كان تصوري أنه قليل الخروج محدود الصلة بالناس.

وهكذا طويت أمل اللقاء به أو الحديث إليه مع ما نطويه من آمال لا سبيل إلى تحقيقها، واكتفيت أن أقرأ له مع من يقرءون، واكتفيت بأن أتسقَّط أنباءه، ما كان منها تاريخًا أو ما كان حديثًا دائرًا بين الناس. وسمعت فيما سمعت عن مقالاته السياسية التي كانت تهز أرجاء البلاد هزًّا، مع أنها كانت مقالات تهاجم سعد زغلول وهو من هو زعامةً وشعبية. وسمعت فيما سمعت بعض عناوين هذه المقالات وبعض فقرات منها، فكنت أحفظ العناوين وأحفظ الفقرات.

وظل الحال هكذا حتى توفي أبي في ٢٢ يناير سنة ١٩٥٣م. وكان حزب الأحرار الدستوريين قد حل مع الأحزاب الأخرى قبيل وفاته بأيام قلائل. وأراد أعضاء الحزب أن يقيموا له حفل تأبين فتولى الدكتور هيكل باشا الأمر، وبدأ يُعِدُّ العُدة لإقامة حفل التأبين.

وأسمى الجماعة التي تقوم بحفل التأبين اللجنة القومية. وراح الدكتور هيكل باشا متفضلًا يتصل بالمتحدثين في الحفل. وكنت في زيارة له فقال لي إنه يريد أن يكلم الدكتور طه حسين ليشترك في حفل التأبين، ثم قام إلى التليفون فطلب الدكتور طه فسمعت صوته في التليفون؛ فقد كنت واقفًا بجوار الدكتور هيكل، وكانت التليفونات ما زالت صالحة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوته في التليفون؛ فقد حضرت له محاضرات في الجامعة الأمريكية وسمعته في أحاديث الإذاعة، ولكني لم أسمع صوته في التليفون أبدًا. وقال له الدكتور هيكل «يا طه.» وتعجبت للحظة ... كيف يمكن أن ينادي الدكتور طه حسين باشا جميعًا ب «يا طه»، وما لبثت أن تذكرت أن المتحدث هو الدكتور هيكل، وأنهما زملاء عمرٍ وزملاء جريدة السياسة وزملاء قلم. ولم يحس الدكتور هيكل بما دار في خلدي، والحمد لله، وأكمل حديثه: «إننا نقيم حفل تأبين لدسوقي يوم كذا الساعة كذا.» وسمعت الدكتور طه يقول: «في هذا الموعد أنا عندي محاضرة سألغيها وأجيء لأتكلم في التأبين.»

وهكذا شاء القدر أن يكون أول لقاء لي بالدكتور طه حسين في مناسبة من أكرم المناسبات وأقربها إلى مشاعري … وهكذا شاء القدر أيضًا أن يكون الدكتور طه متفضلًا عليَّ فضلًا لا أستطيع أن أنساه ولا أملك الوسيلة لشكره عليه.

وفي يوم الحفل جاء الدكتور طه وألقى كلمة التأبين. وأنا أحب أن أثبتها في هذا الكتاب؛ فهي أولًا كلمة لم تُنشر، ومن حق كل كلمة ألقاها الدكتور طه أن تُنشر، وهي مُهداة إلى أبي وأنا الذي أؤلف هذا الكتاب، فلا بأس عليَّ أن أثبتها وفاءً لأبي إن لم يكن لأي معنًى آخر.

إنا إلى الله راجعون لقد	أصبح حزني عليك ألوانًا
حزن اشتياق وحزن مرزأة	إذا انقضى عاد كالذي كانا

غيري من الخطباء والشعراء أقدر مني على ذكر مآثر الفقيد العزيز وتعدادها، إن كان إلى تعدادها سبيل.

أما أنا فلم أقم مؤبِّنًا أو معدِّدًا للمآثر، وإنما أنا صديق يقول كلمة حق في صديق. لا أبكيه، ومتى نفع البكاء على الذين فارقوا الدنيا؟! إنه لا يردهم ولا يُسلي الباقين على ما يجدون من حزن.

لا أبكيه هو، وإنما أبكي لأصدقائه الذين عاشوا بعده — وأنا منهم — فإن فقْدَ الأصدقاء ليس إلى تعويضه وليس إلى العزاء عنه سبيل.

إن الشباب يستطيعون أن يستقبلوا حياتهم في أمل رضي، يستطيعون أن يجددوا عهدهم بالأصدقاء — أما الذين تقدمت بهم السن، فإنهم إذ يفقدون صديقًا فإن حزنهم مقيم ما أقاموا في هذه الديار، حزنهم لهم صديق وعشير، ملازم لعقولهم، مستقر في أعماق ضمائرهم، يضطربون في شئونهم مع الناس، ولكنهم ما يكادون يخلون إلى أنفسهم حتى يجدوا الحسرة والهم والبؤس.

إني — أيها السادة — لأذكر هذا الصديق الكريم منذ عرفته في ميعة الشباب، كنا في ذلك الوقت نشيطين عنيفين في نشاطنا، نستقبل الحياة غير حافلين بأحداثها، قد آمنا بالحق واندفعنا في سبيل الذود عنه، لا نعمل لأحد ولا لشيء حسابًا، وإنما نندفع مع الحق حيث يريد أن يدفعنا. وكان هذا الصديق أخًا كريمًا وفيًّا يذكرنا إذا غبنا عنه، ويتفقدنا إن طالت غيبتنا، ثم أخذت الأيام تفرِّق ما بيننا، فكدنا لا نلتقي إلا بين العام والعام، ولكننا كنا على ما عرف كلٌّ منا لصاحبه من الود وصدق الوفاء، وإني لأذكر ذات يوم — وكان

وزيرًا — وكنت من أشد الناس عنفًا في مخاصمة وزارته التي كان فيها، كنت أُصبِّحها وأُمسِّيها باللوم الشديد — ولكني لا أذكر أني وجدت على دسوقي مأخذًا أو مغمزًا — وما أذكر أني فكرت فيه لحظة حين أوجه إلى وزارته أشد اللوم وأعنفه — ومع ذلك فقد شكا إليَّ بعض الناس أنه يطلب التليفون منذ خمس سنين، ولا يجد السبيل إليه إلا سبلًا لا يريد أن يسلكها، وذكرت أن دسوقي هو وزير المواصلات، واستحييت أن أكلمه في ذلك، فكلفت صديقًا بذلك، وإني لجالس ذات يوم وإذا دسوقي يدعوني بالتليفون ويعتب عليَّ عتبًا مريرًا على أن وسطت بيني وبينه صديقا، حتى اضطرني أن أعتذر إليه في أنني لم أتصل به اتصالًا مباشرًا.

أذكر هذا الصديق وأذكر أصدقاء آخرين سبقوه إلى الموت، ماتوا كما يموت الناس، إلا أنهم في قلبي أحياء، لم يرفق واحد منهم على هذه النفس البائسة التي أَلِفَت توديع الأصدقاء، حتى سئمت توديعهم وتمنت أن تفرغ من هذا التوديع كما يقول أبو العلاء.

إن قلوب الأصدقاء الأوفياء أشبه شيء بالمقابر الحية، في كل قلب مقبرة تعيش مع صاحب هذا القلب، يخلو إليها حين يجنُّ الليل، يتحدث إليهم ويذكر الساعات الحلوة التي لم تشتقَّ حلاوتها من متاع الحياة وأغراضها، وإنما اشتقته من صدق الود وكرم الصلة وحسن الوفاء.

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحَّما
وما كان قيس هُلْكُه هلكُ واحدٍ ولـكـنـه بـنـيـان قـوم تـهـدَّمـا

بنيان هذه الأسرة الكريمة وبنيان هؤلاء الأدباء الذين كان يحبهم ويؤثِرُهم، ويرعى الشباب الذين يحتاجون إلى الرعاية منهم، لا يتكثر بذلك ولا يتخذه فخرًا ورياءً، وإنما فُطِر محبًّا للأدب، فرأى حقًّا للأدب أن يرعى الأدباء. وبنيان أصدقائه هؤلاء الذين يذكرونه محبين في كل آنٍ.

لا أقول فيه إلا ما قاله رسول الله حين مات ابنه في حجره فدمعت عينه، فقال له بعض أصحابه أتبكي وقد نهيت الناس عن البكاء؟! فقال: «إن النفس لتجزع، وإن العين لتدمع، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون.»

وبهذا الحديث أنهى الدكتور طه كلمته، وهي كما ترى كلمة بسيطة لم يتكلف فيها الرثاء ولم يفتعله افتعالًا، ولكنني — ولا أدري لماذا — أحس أنها صادرة من أعماق قلبه. وكنت وأنا أستمع إليها أبكي بكاء مُرًّا كأني أواجه موت أبي من جديد في كل كلمة منها.

كنت أحب طه حسين الأديب. ويومذاك أحببت طه حسين الإنسان، وظللت أحب الاثنين فيه حتى الآن، وما أشك في أن هذا الحب سيصحبني يومَ أنا ذاهب إلى لقائه هو وأبي في عليين.

انتهى الحفل وصرت حائرًا ماذا أفعل لأشكره! واستحييت أن أقصده لأول مرة في حياتي لأشكره. ومن أنا حتى أشكره؟ … إنه حين رثى أبي إنما رثى صديقه وفاءً منه له. فأي شأن لي أنا حتى أذهب للشكر! إن أبي شخصية عامة، والشخصية العامة أرفع من أن تكون ملك أبنائها أو آلِهَا؛ فالذهاب لمجرد الشكر وحده لا محل له.

كان صديقنا، الأستاذ الشاعر الوفي أحمد عبد المجيد الغزالي، يقوم بجمع الكلمات والقصائد التي قيلت في حفلات تأبين أبي. وقد تم له ذلك، فرأيت أن أقل ما أستطيع أن أقدمه إلى الدكتور طه حسين هو هذا الكتاب. وكان كتابي «ابن عمار» قد ظهر في هذا الحين، فحملت الكتابين وقصدت إلى منزل الدكتور طه الذي كان بالزمالك آنذاك. وكان الدكتور طه جالسًا في شرفة بيته يستقبل الزوار والشمس، فجلست إليه وقدمت الكتابين. وأذكر أن تحدثْنا يومذاك عن موقعة الأحزاب وموقف اليهود منها، وأذكر أنني سألته إن كان يرى بعض العنف في المقتلة التي أصاب بها النبي اليهود في أعقاب هذه الموقعة، فقال لم يكن للنبي خيار، إنه يومذاك لم يقتل اليهود لأنهم يهود، وإنما قتل أبناء مدينة خانوها، فلو كان يريد أن يقتل اليهود لقتلهم قبل ذلك، ولكن الواقع أنهم الخونة، وعقوبة الخيانة القتل حتى يومنا هذا بعد كل هذه الحضارة والرفاهية التي أَلَّمت بالجنس البشري، فكيف بهذه الفترة من الزمان؛ حيث كان القتل بعض عمل العرب. وأذكر أنه قال يومذاك أيضًا إن الإسلام أدخل الكثير من الرحمة والشفقة إلى القلوب، وهي معانٍ كانت بعيدة عن الخلق العربي، بل كان العربي يرى فيها بعض أخلاق النساء. فحين جاء الإسلام منع وأْدَ المواليد من إناث وذكور، وجعل القتل عقوبة على المعاصي الكبرى. وحين عاد الحديث إلى اليهود قال: لم يكن النبي يستطيع أن يفعل بهم أقل من هذا، فلو تركهم يخرجون فسيكونون حربًا عليه، والإسلام بعدُ في أيامه الأولى لم تثبت رواسيه ولم تقُم أركانه، ولو تركهم يقيمون دون ما عقابٍ فسيكونون بؤرة خيانة في حرب يخوضها المسلمون بعد ذلك.

أذكر أنني زرت الدكتور طه بعد ذلك مرة واحدة أو اثنتين في بيته بالزمالك، ثم انتقل بعد ذلك إلى بيته «رامتان» بالهرم.

كنت في هذه الأيام الأولى مِن تعرُّفي بالدكتور أتحرَّج أن أثقل عليه بالزيارة، وكنت أحسب أن صلتي به ستكون في حدود رسمية لا تتعداها. وكان أن هاجم أحد الكُتاب

الأساتذة الكبار من رواد الأدب العربي. وقد ظللت عمري أكره هذه الطريقة في محاولة الظهور. وقد كنت، ولا زلت، أرى فيها طريقة رخيصة غاية الرخص في التسلق على أكتافهم. فكتبت مقالة عنيفة في مجلة الرسالة الجديدة التي كنت أكتب بها في هذه الأيام. وكان أن ذهبت في أعقاب المقالة إلى دار الأدباء، وكان مقرها نادي القصة الآن، وكانت هناك مناسبة لا أذكرها، فكان بالدار جمْعٌ كبير على رأسه الدكتور طه حسين، فتقدمت إليه مسلِّمًا فأبدى رضاءه عن المقالة، فأسعدني هذا، ولكنني ظللت على تحرجي من الزيارة وعلى اعتقادي أن صلتي بالدكتور ستظل في حدود رسمية لن تتعداها.

٢

كنت خليقًا أن أظل على تباعدي، ولكن مهما يكن إيماني بالاختيار لا بالجبر، فإن الحياة تركب صدفًا بعيدة كل البُعد عما يحاول الإنسان أن يرتبه أو يسير فيه. ولعل حكايتي مع أمين يوسف غراب تدل على هذه الحقيقة أصدق دلالة. فقد كنت أريد لقاءه في أمر هام، وكان منقولًا حديثًا إلى القاهرة، فلم يكن عنده تليفون، وكان منقولًا أيضًا من وظيفته في السكة الحديد، ولم يكن قد تسلم عمله الجديد بعد، وليس عندي عنوان بيته. ورحت أسأل عنه كل من أعرف أنه على صلة به؛ وعبثًا ضاع جهدي، إلى أن كان يوم ذهبت فيه إلى زيارة زميل دراستي عبد الفتاح مجدي، وإذا بي أفاجأ بلافتة تحمل اسم أمين يوسف غراب على الشقة المقابلة لشقة مجدي، وعن طريق أمين يوسف غراب أصبحت أحد أبناء الدكتور طه المقربين. فقد كان أمين يزور الدكتور من حين إلى آخر، وكان يطلب مني أن أذهب معه فأتحرج.

حتى كان يوم أخبرني أمين أن الدكتور يسأل عني ويتساءل لماذا لا أذهب إليه، وعندئذٍ تشجعت وذهبت مع أمين. وتعودت على هذه الزيارات. وأذكر أن أمينًا أخبرني يومًا أنه يؤلف رواية أو قصة قصيرة، لا أذكر، وقص عليَّ فكرة القصة فقلت له إنك تقيم قصتك على فكرة فيها خطأ شرعي. وذهبنا إلى الدكتور وسأل الدكتور أمينًا — كما يفعل دائمًا مع أبنائه — عما يكتبه في تلك الآونة. فتطوعت أنا للإجابة راويًا القصة ذاكرًا أنها تقوم على فكرة فيها خطأ شرعي، فقال الدكتور «أظنك على حق … يا فريد هات المصحف.» وجاء فريد بالمصحف فقال له: «اقرأ الآية التي أولها كذا …» فقرأها فقال له: «اقرأ قبلها بآيتين.» فقرأ؛ فإذا هي الآية التي تحمل شاهد المسألة الشرعية التي اختلفت فيها مع أمين، وقمت من هذه الجلسة وأنا مذهول من هذه الذاكرة الحافظة؛ فقد كنت

قبل أن يصدر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أسأل الشيخ من المقرئين عن آية أريد أن أنقلها كشاهد فيما أكتب؛ فإذا هو يتلو السورة كاملة ليصل إلى الآية المنشودة.

في هذه الفترة صدر كتابي «هارب من الأيام»، فكان من الطبيعي أن أقدم منه نسخة إلى أستاذي الكبير. وكان أقصى أمل أطمع فيه أن يقرأ طه حسين الكتاب. وكان هذا الأمل يلوح لي كسراب في صحراء، يبدو وما يلبث عند التمعن أن يختفي. فلقد أهديت له من قبل «ابن عمار» فلم يذكر لي عنه شيئًا، واستحييت أن أساله، وابن عمار كتيب صغير قد يفرغ منه قارئُه في ساعة وبعض الساعة، فكيف أطلب أو أتصور أن طه حسين جميعًا سيقرأ هارب من الأيام؛ وهي الرواية التي أنافت صفحاتها على الثلاثمائة صفحة ... ثم من أنا حتى يقرأ لي طه حسين؟! ... إنما عرفني فتًى شابًّا يكتب بعض المقالات في الصحف، ويعجب به إعجابًا شديدًا، وليس هذا ولا ذاك بسبب كافٍ أن يقرأ لي طه حسين، فكم هناك من كُتاب المقالات! وكم له من معجبين! وكنت حينذاك في أواخر العشرينيات من عمري لا أكاد أبدأ الثلاثين، وقد سألني عن سني وعرفه ... لا ... لا سبيل إلى هذا ... لا سبيل.

وفي يوم زارني أمين غراب، وقال هلم بنا إلى الدكتور طه، وسألته: «ما المناسبة؟» قال: «لا مناسبة، لقد قرأ روايتك ويريد أن يراك.» وسمعت الخبر ووجدت له في نفسي صدى الفرحة التي تواتيك إذا تحقق لك هدف لم تتصور أن تجعل منه أملًا لك؛ حتى لا يفجعك انهدامه. ولم ألبث. قمت من فوري مع أمين، فما هي إلا الومضة الخاطفة حتى كنت جالسًا إلى الدكتور طه، وكان معه بعض الزوار. وكان الحديث بينه وبين زوَّاره جاريًا، فتركه في مجراه بعض الوقت ثم مال إليَّ: «هيه يا عم ثروت! روايتك عظيمة!» فقلت: يكفيها شرفًا أنك قرأتها. وحينئذٍ قال جملة سأثبتها هنا مهما يكن في إثباتها من نرجسية. فربما كان رأيي أنا غير هذا الرأي، ولكنها كلمة سمعتها من طه حسين جميعًا ولم أقُلها إلا إلى الخاصة المقربين؛ استحياءً من العجب والزهو، واليوم قد مات الرجل. وقد كنت يوم قال ذلك أتحسس الطريق بخطوات متعثرة في عالم القصة. وقد كنت يومذاك في الثلاثين من عمري، بل لعلي كنت قبيل الثلاثين. أما اليوم فقد وضح منهجي في القصة؛ ومن كان راضيًا عنه فشكرًا له، ومن لم يكن فإني أعتذر إليه أنني لم أستطع إرضاءه، ولكني على كل حال أصبح لي مكاني المحدد الواضح، إن كان قليلًا عند بعض، أو كان كثيرًا عند بعضٍ آخرين؛ فهو قد تحدد، وما كان كان والأمر لله. فأنا اليوم قد تخطيت السادسة والأربعين، ولا سبيل لي أن أغيِّر نفسي أو أغير منهجي، فإذا خيِّل إليك

أنني أعتذر عن الجملة التي قالها لي الدكتور، فنعم؛ إني أعتذر. فما كرهت شيئًا قدر أن يمدح الإنسان نفسه، وما وجدت شيئًا يصغِّر بالإنسان قدر المديح الذي يطلقه هو عن نفسه، ولكنك إذا أتحت لي المعذرة أنني ناقل ولست منشئًا لمديح، وإذا أتحت لي العذر أن أكتب كتابًا عن طه حسين بعيدًا كل البُعد عن الدراسة المنهجية والأكاديمية، إذا أتحت لي العذر بهذا جميعًا، فشكرًا لك، وإذا أصررت بعد ذلك على مؤاخذتي فقل إني سخيف، وسأحتملها في سبيل أن أذكر هذه الجملة التي قالها عميد الأدب العربي.

قال الدكتور بالحرف الواحد: «بإخلاص، لم يكتب في تاريخ العربية عن الريف المصري مثلما كتبت أنت في هارب من الأيام.»

فإذا ذكرت أيها القارئ هؤلاء الذين كتبوا في الريف المصري، أولئك الذين لا أجرؤ أن أذكرهم أنا، وإنما أكتفي فقط أن أقول إن عميدنا نفسه قد كتب الكثير من الروايات في الريف المصري، إذا ذكرت هؤلاء ولم تمهد لي المعذرة في أن أثبت هذه الجملة، فمرةً أخرى ارمِني بأني سخيف، وأمري إلى الله.

وبعدُ، فليس هذا الكتاب مديحًا لي، ولكن إذا كان المديح من طه حسين فإني سأذكره واغفروا لي هذا؛ فإن كل إنسان يطرب للمديح، ولكن الإنسان أيضًا مع السن يعرف المديح الذي يخلُقُ به أن يطرَب له، والمديحَ الذي يخلق به أن ينصرف عنه كأنه ما قيل. ومديح طه حسين دائمًا وفي كل وقت مديح يُسعى إليه، فإذا سعى هذا المديح إلى كاتب دون مجهود منه، فإنه إذن مغرور إذا لم يَزْهُ به أو على الأقل يلتمس الثقة بالنفس.

ثم قال الدكتور بعد ذلك: «إنك أديب قلت ما تريد قوله عن طريق الرواية.» وطبعًا لا أنتظر أن تسألني عما أجبت به طه حسين، فإني لم أعُدْ أذكره؛ فقد وجدت نفسي فجأة وبلا مقدمات أديبًا يقرأ له طه حسين ويلقي إليه بهذا الحديث، فلا عجب إذن أن يصيبني الدُّوَار ... بل أنواع من الدوار ... دوار الفرح ... ودوار الزهو ... ودوار الشعور بأن الأمل الذي كان يبدو لي بعيدًا في أن أُصبح من جملة الأدباء؛ قد تحقق. وأنواع أخرى من الدوار لم أعد أذكرها اليوم، وقبل أن أقوم قال لي الدكتور: ومع ذلك حاشِدْ ودنك!

قلت: «لماذا يا معالي الباشا؟» قال: سترى

وخرجت مع أمين لا أكاد أحس أنني أسير.

وما هي إلا أيام قلائل حتى ضرب جرس التليفون في منزلي، وكانت جريدة الجمهورية، وطلب المتحدث منها صورة لي لينشرها مع مقال الدكتور طه عني، فأرسلت الصورة ولم أنَم الليل وتنظَّرت الجريدة مع الفجر.

وجلست أقرأ المقال، طبعًا لا تنتظر مني أن أذهب في السخافة إلى المدى الذي يجعلني أنقل إليك المقال، ولكني سأنقل منه بعض فقرات قد يطيب لي أن أعلق عليها.

فأستاذنا لم يعجبه العنوان؛ لأنه لا مهرب من الزمان للكائن الحي ما دام حيًّا، وذلك ما قاله أبو العلاء في بيته الرائع الخالد:

ولـو طـار جـبـريـل بـقـيـة عـمـره   من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

ثم يقول الأستاذ العميد: «وأكبر الظن أن هذا العنوان إنما راق المؤلف؛ لأن فيه شيئًا من الغرابة والغموض يروعانه هو أولًا ويروعان كثيرًا من قرَّائه بعد ذلك؛ وإن كان شيء منهما لم يَرُعْني ولو أني أطعت العنوان لانصرفت عن قراءة القصة، ولحرمت نفسي متعة قيِّمة حقًّا؛ فقد أتيح للأستاذ ثروت أباظة حظ حسن جدًّا من الإجادة مكَّنه أن يفرض عليك المضيَّ في القصة إذا بدأتها حتى تبلغ غايتها، بل مكَّنه من أن يفرض عليَّ أنا قراءتها مرتين لم أباعد بينهما في الزمان.»

ومن أجل هذه الأنا الرائعة نقلت إليك هذه الفقرة؛ فهو فيها يعرف نفسه حقَّ المعرفة ... وأي تحية يمكن أن يقدمها لكاتب أعظم من أن يقول: ... مكَّنه من أن يفرض عليَّ أنا قراءتها مرتين ...

وأنت طبعًا تدرك وقْع هذه الجملة على فتًى لم يجرؤ أن يقيم في نفسه أملًا بأن يقرأ طه حسين روايته.

أما الفقرة الأخرى التي أريد أن أنقلها، فهي هجوم الدكتور طه على رواية هارب من الأيام. ولا أحب أن تظن بي التواضع، ولكن حين أكمل لك قصة هذا الهجوم ستدرك أنني سعدت به أكثر من سعادتي لأي مديح نلته في حياتي؛ فقد كان الدكتور طه في نقده لهذه الرواية، ولغيرها من الروايات التي نقدها لي، أستاذًا يبدي رأيه فيما يكتبه أحد تلامذته، ولكنه في هذا الهجوم الذي أثبته في نقده لهارب من الأيام كان أبًا يذود عن ابنه عادية العنف والجبروت. قال الدكتور:

> «وقد لخصت لك هذه القصة في إطالة شديدة وفي إيجاز أشد منها، لم أجد بدًّا من الإطالة لأبين لك أن القصة واقعية في تفصيلها، نائية في جملتها وفي غايتها عن الواقع. كل التفصيلات يعرفها الناس ويرون أشباهًا لها في حياة بعض القرى أحيانًا، ولكن هذه الجماعة التي تأتلف لتأخذ من الأغنياء وتردُّ

على الفقراء ليست من واقع الحياة في شيء؛ ليس من واقع الحياة أن يتخذ الناس الإثم والنكر وسيلة إلى الخير، وأن يتخذوا هذا الخير نفسه وهو إعطاء الفقراء وسيلة إلى اقتراف الجرائم والآثام.»

كل هذا ابتكره خيال الكاتب الشاب ابتكارًا وليس عليه بذلك بأس؛ فمن حق الكاتب أن يستجيب لخياله حتى حين ينأى به عن الواقع شيئًا، ولكن ليس للكاتب أن ينسى أن قصته تُنشر على الناس فيقرؤها منهم الراشدون والقاصرون، ويقرؤها منهم العقلاء والأغرار، وقد ينخدع بعض هؤلاء عن بعض ما يقرءون. وقد يصادف من نفوسهم مواطن الضعف، وقد يورطهم ذلك في بعض ما يسوءُهم، ويسوء الناس بهم. والكاتب مسئول أمام ضميره أولًا وأمام الجماعة التي يكتب لها ثانيًا؛ فليس له بدٌّ من أن يستحضر تبعته حين يكتب وحين ينشر أو يذيع. ولست أدري مِن أين اشتق خيال الكاتب لهذه الصورة، صورة العصبة الآثمة التي تتخذ الإثم وسيلة إلى البر، وتتخذ البر نفسه وسيلة إلى الإثم. أيمكن أن يكون قد قرأ كثيرًا أو قليلًا من أخبار الصعاليك في حياة الجاهلية وفي بعض الأعصار العربية بعد الإسلام؟ أولئك الذين كانت تضيق بهم سبل العيش، ويكرهون النظام الاجتماعي الذي لا يتيح لهم تحقيق ما يطمحون إليه، فيخرجون على النظام، ويستبيحون لأنفسهم النهب والسلب والقتل أحيانًا، ويعيشون في عزلة عن الجماعة لا يدنون منها إلا ليروعوها ويرزءوها في أموالها، ثم ينأون عنها ليعيشوا في عزلتهم أجوادًا كِرامًا يُؤَمِّنون الخائف الذي ينقطع به الطريق، ويطعمون الجائع، ويعطون المرحوم، ويرون هذا كله مكملًا لمروءتهم ومحققًا لرجولتهم، ويفاخرون بهذا كله في شعرهم الذي حفظت منه كتب الأدب أطرافًا لا بأس بها.

ولكن عصر الصعاليك قد انقضى، فنحن لا نعيش في البادية ولا في القرن الأول الهجري، وإنما نعيش في الحاضرة ونعيش في القرن الرابع عشر للهجرة، وما ينبغي لعصر الصعاليك أن يعود وهو لم يعُد والحمد لله. أفيكون الأستاذ قد قرأ شيئًا من أخبار هؤلاء الصعاليك الذين يأخذون من الأغنياء ليردوا على الفقراء؟ ولا يغضب الكاتب فقد كنت أحب أن يجد صيغة أخرى غير الأخذ من الأغنياء والرد على الفقراء؛ لأن لهذه الصيغة مكانها الملحوظ من فرض الزكاة وتحبيب الصدقة إلى الناس.

حين قرأت مقال الأستاذ الدكتور ظللت أستعيده حتى قاربت الساعة الضحى، فذهبت إلى منزل الدكتور ووجدته جالسًا بمكتبه، وتقدمت إليه بالشكر فإذا هو يقول: أنت مزعلتش؟

– أزعل؟ وده معقول؟ ...
– قل لي إيه قصدك من روايتك؟
– معاليك فهمت قصدي.
– أحب أن أعرف منك.
– معاليك قلت لي أنت أديب قلت رأيك عن طريق الرواية.
– أيوه ... لكن عايز أعرف منك.

فقلت له إنني بطبيعة الحال لم أقصد مجرد ظاهر النص، فقال: آه أنا فهمت كده برضه، بس أنا باستحلفك برحمة والدك وبحياتي عندك، إذا كان لحياتي عندك قيمة، ألَّا تذكر ما قصدته لأحد مهما يكن قريبًا منك، فأنا أخاف عليك العواقب ... فالواقع أن العواقب غير مأمونة، وأنا قصدت أن أقسوَ عليك، وأفسر الرواية تفسيرًا خاطئًا، وأجعل العمدة هو الهارب من الأيام؛ حتى يمكنك إذا سُئلت أن تستشهد بمقالتي دي على أنك لم تقصد شيئًا.

ألجمني هذا الحديث وفكرت أن أقبِّل الرجل ولم أستطع؛ فقد منعتني هيبته أن أفعل، ولكن وجدت دموعًا تنحدر من عينيَّ لم يَرَها الرجل، فإننا لا نلتقي بحنان الأب في حياتنا إلا نادرًا، بل إنني أوشك أن أقول إن الإنسان لا يلتقي بهذا الحنان إلا مع الأب وحده.

كيف تأتَّى لطه حسين، وهو طه حسين، أن يخطِّئ نفسه ويلوي تفسير القصة بهذا العنف، ويقبل أن يقول عنه القارئ إنه لم يفهم القصة؛ في سبيل أن يحمي كاتبًا لم يعرفه إلا منذ قريب أن يعدو عليه طغيان!

انتهت المقابلة ولا أذكر كيف انتهت، ولكنني أذكر أنني كنت مسافرًا إلى البلدة في ذلك اليوم، وانتهزت فرصة أنني لست في القاهرة، وكتبت خطابًا إلى الدكتور طه كشفت فيه عن مشاعري التي منعني جلاله أن أكشف عنها بمشهد منه.

وصدق حدسي في أن بعض الناس سيقولون إن طه حسين لم يفهم الرواية، فكيف يقول إن الهارب من الأيام هو العمدة وليس كمالًا الطبال! فإن في بعض الناس صَغارًا، وكثير منهم يحب أن يتسقط الأخطاء للعمالقة. وقد استطاع صَغارهم أن يهيئ لهم أن طه حسين الذي علَّم هذه الأجيال جميعًا يخطئ في فهم روايةٍ أبعدَ ما تكون عن الغموض.

وفي بعضٍ آخر من الناس غباء، وفي بعضٍ منهم طيبة، ومن هؤلاء الآخرين أستاذنا فريد أبو حديد. فقد وضعت مقالة الدكتور طه عن هارب من الأيام في الطبعة الثانية وما

تلاها من طبعات، على رغم كرهي الشديد للمقدمات في العمل الفني، إلا أن طه حسين استثناء لا يُقاس عليه. وشاءت الجمعية الأدبية المصرية أن تناقش الرواية في ندوة لها، وشاء أستاذنا فريد أبو حديد أن يناقش هذا الرأي للدكتور طه، فسألني «كيف فهم الدكتور طه الرواية على أن الهارب من الأيام هو العمدة، وليس كمالًا الطبال؟» فقلت: «هذا شأن الدكتور طه.» فقال: «ولكنك وضعت مقالته في أول الطبعة الثانية.» فقلت: «لأنها مقالة الدكتور، وكل ما يكتبه الدكتور طه على رأسي من فوق.» فسكت أستاذنا فريد أبو حديد ولم يشأ أن يطيل في النقاش.

توطدت صلتي بعد ذلك بالدكتور طه وشهدت من أخلاقه ما لا يعرفه عنه الكثيرون؛ فهو كريم غاية الكرم، يصل الناس ويخص بصلته المكفوفين، وليس في هذا غرابة. كنت في مجلسه يومًا فقدِم إليه شخص كفيف البصر، ويبدو أنه كان يعلم عنه أنه رقيق الحال فاستدعاه، ومد يده إليه ليصافحه، وطبعًا لم يرَ الضيف يده، فتقدم فريد في دربه ووضع يد كلٍّ منهما في يد الآخر، ثم أخرج الدكتور طه حافظة نقوده، وأخرج منها ورقة مالية وسأل فريد بالفرنسية: «أهذه خمسة جنيهات؟» فقال فريد: «نعم.» فقدَّمها إلى الرجل الذي لم يرَها، ويمسك فريد بيده مرة أخرى ويضعها في يد الضيف. فشكره الرجل ثم سأله عن شأن له، فأنبأه أنه تكلم في أمره إلى المختص، وانصرف الرجل.

ولا أكتمك؛ لقد تأثرت غاية التأثر وأنا أرى فريدًا مرتين يضع يد كلٍّ منهما في يد الآخر، ولا أدري لعلني تذكرت في هذه اللحظات أبيات مطران:

إذا وسع الكون فكر امرئ — فلا بأس بالطرف أن يحسرا
على الشمس أن تهدي المبصرين — وليس على الشمس أن تبصرا

وكان الدكتور كثيرًا ما يطيب له أن يروي ذكرياته. وقد كان دائمًا يروي لي عن أبي قصته، تلك التي رواها في رثائه عن التليفون، ويبدو أنه كان متأثرًا بها غاية التأثر، وروى لي مرةً قصة عن أبيه، لعلها بسيطة ولكني أحب دائمًا أن أرويها؛ فهو يقول إنه حين عُيِّن أستاذًا في الجامعة كان الدرس الأول له عن الجزيرة العربية، فطلب أن تُعَد خريطة بارزة للعالم العربي، واستعان بالسيدة الفاضلة زوجته في معرفة هذه التضاريس باللمس. وقبل أن يدخل المحاضرة طلب أن توضع الخريطة على منصة الأستاذ، ودخل فألقى الدرس عن جغرافية الجزيرة العربية، واستعان في شرح الدرس بالخريطة مشيرًا على تضاريسها وكأنه يبصرها، وحين انتهى الدرس صفق الطلبة تصفيقًا شديدًا أشعره

أنه بلغ من نفوسهم ما يريد أن يبلغ، وعند خروجه فوجئ أن أباه كان حاضرًا للدرس، فقال له: وأنت يا أبي لماذا تعذب نفسك بسماع هذا الكلام الذي لا صلة لك به؟ فقال له: ومن قال لك إني أريد أن أفهم شيئًا مما تقول؟

– أمال جاي ليه؟

– جاي أشوفك وأنت بتدرس التلامذة.

لا أدري لماذا ... أو لعلني أدري لماذا أتأثر بهذا الحوار كلما ذكرته لأحد، ولا أخفيك أن الدموع تشرئبُّ في عيني الآن وأنا أكتب هذه الكلمات. ولعله يحلو لي أن أذكر فيما أذكر الحلقة التلفزيونية التي أعدها الأستاذ أنيس منصور ليجتمع بعض الكُتاب والأدباء بعميدهم طه حسين في منزله. ولا أعرف أن حلقة تلفزيونية لاقت من النجاح أو النقاش قدر ما لاقت هذه الحلقة. وقد تناقلها التلفزيون في البلاد العربية جميعًا، فكان لها صدًى بعيد حيثما عُرضت، وأذكر من هؤلاء نجيب محفوظ، يوسف السباعي، عبد الرحمن الشرقاوي، د. عبد الرحمن بدوي، أمين يوسف غراب، محمود أمين العالم، أنيس منصور. وقد ذهبنا إلى البيت فوجدنا البيت يضرب يقلب، كما يقول المثل العامي، وأنا أعرف أن السيدة، حرم الدكتور، تحب أن يكون البيت مرتبًا دائمًا، فتوقعت أن تثور السيدة على هذه الفوضى التي أشاعها التلفزيون ومعداته في البيت. وصح ما توقعته؛ فالسيدة ثائرة، وقد كان الدكتور طه في ذلك الحين مريضًا بعض الشيء فزاد هذا من ثورتها، فاستدعتني وقالت لي في حدَّة: «أنت المسئول عن الدكتور؛ إذا أحس بتعب أو ألم فعليك أن توقف التسجيل فورًا، وأنا أتركه أمانة في يديك أنت، وأنت المسئول أمامي.»

فقلت لها: لا تخافي، سأفعل هذا. وخرجت إلى الحديقة حيث كنا ننتظر حتى نُستدعى إلى التسجيل. وكان بالحديقة محمود أمين العالم، وكان في هذه الفترة قد كتب مقالة غاية في العنف مهاجمًا عبد الرحمن الشرقاوي، وقد اتسمت المقالة بشيء أسوأ من العنف؛ فقد كان ينقد مسرحية الشرقاوي «الفتى مهران»، وبدلًا من أن ينقدها نقدًا موضوعيًّا راح يكشف خباياها؛ فأصبح النقد أشبه ما يكون ببلاغ بوليس. وهو أمر تواضع النقد على التعفف عنه، فالرموز في الرواية أمر يتخفى وراء العمل الفني، وفَهْم هذه الرموز يختلف من قارئ إلى آخر، فلا يجوز للناقد أن يفرض فهمه على القراء، وخاصة إذا كان كشف هذه الرموز يُعرِّض الكاتب لما لا تُحمد عقباه.

وجدت أمين غراب يكلم العالِم بشأن المقالة، وسمعت طرفًا من الحديث، وسمعت العالم يقول: «إنني لم أقل شيئًا.» فتملَّكني الغيظ وتدخلت في النقاش فارضًا نفسي

لأقول: «إنك لم تفعل شيئًا إلا ما يؤدي بالشرقاوي إلى المشنقة ... بسيطة!» وأخذ العالم ولم يُجِب.

وكانت ليلى رستم هي التي تقدم البرنامج في التلفزيون؛ فمن المعروف أن الذي يُعِد البرنامج يكون عادة من الأدباء أو الصحفيين؛ أما مقدم البرنامج فيكون موظفًا في التلفزيون، وكانت ليلى رستم هي الموظفة المختصة بتقديم هذا البرنامج، وإذا هي تقول لي على غير معرفة بيننا: «أنا حائرة ماذا أفعل أو أقول! إنني لم أقرأ لطه حسين غير عشر صفحات من كتاب الأيام.» فقلت لها: نصيحتي ألا تتكلمي مطلقًا ... سنسأل وسيجيب هو، فما الداعي لكلامكِ؟ وإن لم أكن نسيت حوار الحلقة فأعتقد أن الأستاذة ليلى أخذت بنصيحتي.

وقمنا بالتسجيل، وتفاصيله معروفة لكل من شاهد هذه الحلقة، إلا أن الناس أخذوا على الدكتور طه أنه قال لأنيس: «إننا لم نتفق على أن تأتي بعشرة كُتَّاب ... لقد قلت ثلاثة.» ولو عرفوا ثورة السيدة حَرَمِه والمرَض الذي كان قد بدأ يعانيه في هذه الأيام، لمهَّدوا له العذر.

وفي الحلقة ثار تساؤل: من يمثل الشباب فيها؟ فقال أمين غراب: إن ثروت هو أصغر الموجودين، وقد كنت كذلك فعلًا، ومن عادتي إذا دافعت عن رأي أن أبدو وكأني غاضب، وإن لم أكن كذلك، وقد أحببت أن أدفع رأيًا قيل؛ من أن الدكتور طه لا يهتم بالأدباء الشُّبَّان، فتكلمت بشيء من الحدة مبينًا أن الدكتور طه يحتضن الأدباء الشُّبَّان ويشجعهم تشجيعًا لا يجدونه عند أديب كبير آخر. ويبدو أن الأستاذ يوسف السباعي ظن أنني غاضب لأنني احتُسبت من الأدباء الشبان؛ فقال في ابتسامته العذبة: أنت زعلت علشان قالوا عليك شاب ... حد يطول!

وعلم الله؛ لم أزعل ولم أفكر في الزعل، ولكن هي حدَّتي في الدفاع التي لم أستطع التخلص منها حتى اليوم.

وقبل أن أغادر هذا الفصل يطيب لي أن أروي أبياتًا كان يطالعني بها كلما أبطأت في زيارته ... كان يقول:

إن كنتَ أزمعتَ على هجرنا — من غير ما ذنبٍ فصبرٌ جميل
وإن تبدَّلْتَ بنا غيرنا — فحسبنا الله ونعم الوكيل

كم كنت أخجل حين أسمعه يبدؤني بهذه الأبيات! وكم أدرك الآن مقدار التقصير الذي كنت أقع فيه عندما أتأخر عن زيارته! وهو تقصير في حق نفسي؛ فقد كنت أحسب أن المنيَّة لن تَعجَل إليه هكذا وشيكًا ... وقد كنت أحسب أنه سيعبُر المائة من عمره بمأكله الهيِّن الذي لا يكاد يقيم الأوَد، وبنفسه الهادئة المطمئنة لا يصيبها هلع أو قلق. ولكن يبدو أن الأيام ... أيامه التي رواها، قد انتهبت من الشجرة في نبتها الأول ما جعلها صوحت حين أصبحت دوحة ... أترى هل آن لي اليوم أن أقول له:

إن كنت أزمعت على هجرنا   من غير ما ذنب فصبر جميل
وإن تبدلت بنا غيرنا   فحسبنا الله ونعم الوكيل

٣

شارك طه حسين في الحياة الأدبية منذ وهب نفسه للأدب، واعتبر نفسه مسئولًا أمام الرأي العام الأدبي؛ فهو لا يترك عملًا ذا قيمة دون أن يعلق عليه ويبدي فيه رأيه؛ فهو منذ أواخر العشرينيات إلى أن اختاره الله مشغول بأعمال الآخرين، لا يصرفه عنها شيء. كتب عن «أهل الكهف» لأستاذنا توفيق الحكيم، واعتبر مسرح الحكيم هو بداية المسرح العربي.

وكتب بعد ذلك عن كل عمل أدبي يرى أنه يستحق أن ينوه به، فهو يكتب عن أبناء جيله وعن الجيل الذي يليه وعن الجيل الذي تلا جيله.

ولما كنت متفقًا معك أنني لا أقدم كتابًا منهجيًّا، فإنني سأكتفي بأن أقدِّم بعض أمثله مما كتبه في هذا المضمار.

فلتنظر مثلًا إلى ما كتبه عن زميله الدكتور محمد حسين هيكل حين نشر روايته الأخيرة «هكذا خلقت». ومن المعروف طبعًا أن الرواية المصرية وُلدت على يد أستاذنا الدكتور هيكل بخالدته «زينب».

لست أدري أأهنئ صديقنا الدكتور محمد حسين هيكل برجوعه إلى القصة، أم أهنئ القصة برجوعه إليها، ولكني أعلم أن قرَّاء الأدب النقي الصفو هم الجديرون بالتهنئة؛ فقد أتاحت لهم عودة هيكل إلى القصة، بعد أن كان من السابقين إليها، وبعد أن هجرها هجرًا طويلًا غير جميل، أتاحت لهم كتابًا رائعًا جديرًا أن يُقرأ وأن يُقرأ في أناة ومهل، وجديرًا حين يُقرأ أن يملك قارئه أمْرَه كله ووقته كله وملَكاته كلها أيضًا.

فهيكل بارع في هذه القصة لا يتحدث فيها إلى القلب والشعور وحدهما، ولا يتحدث فيها إلى العقل وحده، ولكنه يتحدث إلى هذه الملكات كلها هي وملكات أخرى غيرها، يتحدث إلى السمع بهذا اللفظ السهل العذب النقي البريء من التبذل والابتذال جميعًا،

والبريء مع ذلك من التعقيد والتكلف، ومِن هذا التصنُّع البغيض الذي ما زال بعض الناس يشغفون به ويتورطون ويورطون غيرهم فيه، ويتحدث إلى البعض بهذه الأوصاف البارعة لنجوم السماء حين ترسل سهامها المضيئة إلى الأرض، وللشمس حين تغرُب فتملأ كل شيء روعة وجمالًا، وتأخذ على الناظرين إليها أبصارهم وعقولهم وأذواقهم جميعًا، وللقمر حين يلقي ضوءه الهادئ المطمئن على النيل وعلى البحر وعلى الصحراء وعلى قمم الجبال وسفوحها.

وهو يتحدث إلى الضمير حين يقيس أعمال الناس بما فيها من خير وشر، وبما فيها من إحسان إلى الناس أو إساءة إليهم، وبما فيها من إرضاء للعقل والشعور الديني، مجتمعين أو متفرقين، وهو من أجلِّ هذه الأحاديث كلها، لا يشغل بعض ملكات قارئة وإنما يشغل ملكاته جميعًا، وهو من هذه الناحية مريح للقارئ ومتعب معًا؛ يريحه لأنه لا يشغل بعض ملكاته عن بعضها الآخر، ويتعبه لأنه يأخذ القارئ فلا يَذَرُه إلى نفسه وإلى ما يحيط به من ظروف وإلى ما يدعوه من شئون الحياة إلا بعد أن يفرغ من قصته.

وقد قلت إنه يتحدث إلى القلب والشعور، وأيُّ حديث أقرب إلى القلب والشعور من حديث الحب هذا الذي يشقى به صاحبه؛ لما يثير في نفسه من الأهواء المتناقضة والعواطف المختلطة، ويشقى به غيره؛ لِمَا ينغِّصُ عليه من بياض أيامه وما يؤرق عليه من سواد لياليه!

ويشقي القارئ نفسه لما يضطره إليه من العناء كلِّ العناء حين يريد أن يهتدي في هذه الخصومات الملتوية العنيفة بين ألوان العواطف وضروب الشعور. وقلت إنه يتحدث إلى العقل، وأيُّ حديث إلى العقل أكثر متاعًا من حديث هذه القيم الكثيرة لأعمال الناس، وملاءمتها للحق مرة، ومخالفتها له مرة أخرى، وموافقتها للعدل حينًا، وانحرافها عنه حينًا آخر، وائتلافها مع القصد في أول النهار، واندفاعها إلى الجور المسرف في آخره، واضطرابها في هذا المتصل، وتأثيرها بهذا الاضطراب في آراء الناس وأحكامهم فيما يكون بينهم من الصلات، بل فيما يكون بينهم وبين نفوسهم من صلات. وقلت إنه يتحدث إلى الضمير، وأي حديث إلى الضمير أدق وأنفذ وأمضُّ في الوقت نفسه من محاسبة الإنسان لنفسه في كل لحظة من لحظات حياته، وتقدير الإنسان لكل عمل من أعماله وكل لفظ من ألفاظه، وبما يمكن أن يكون لهذا اللفظ أو لهذا العمل من أثر حسن أو سيئ، قوي أو ضعيف، في نفوس غيره من الناس، وأي حديث إلى الضمير أدق وأنفذ من حديث الدين حين يتخذه الإنسان مقياسًا لكل ما يصدر عنه من قول أو فعل، ولكل ما يضطرب في

نفسه من تفكير أو شعور. كل هذا تجده في الكتاب؛ فتنعم به وتشقى به أيضًا؛ تنعم به لأنه يمتصك، وتشقى به لأنه لا يخرجك من حيرة إلا ليدخلك في حيرة أخرى؛ ولأنه يضطرك إلى أن تكون مشاركًا لأشخاصه حين يرضون وحين يسخطون وحين يثورون وحين يهدءون. ثم لا يعفيك الدكتور هيكل من أن تشرف من قرب على محاسبة هؤلاء الناس لأنفسهم واحتكامهم إلى ضمائرهم، فترضى عنهم مرة، وتسخط عليهم مرة أخرى، وتوافقهم الآن لتخالفهم بعد حين، وتعطف عليهم في هذه الصفحة من صفحات الكتاب لتصبَّ عليهم نقمتك بعد صفحتين أو صفحات، وأي غرابة في ذلك وقد قلت لك إن هذا الكتاب متعب مريح ومُسْعِد مُشْقٍ وممتع مثير!

كانت تلك هي المقدمة التي مهَّد بها الدكتور طه لنقد رواية «هكذا خُلقت» للدكتور هيكل، ثم هو يمضي بعد ذلك في تلخيص الرواية، كما تعوَّد أن يفعل، ذلك التلخيص الرائع الذي يحيط بالرواية يكاد لا يفلت منها شيئًا. وما أحسبني في حاجة إلى الحديث عما يعانيه الملخِّص من جهد، وخاصة إذا كان ذلك لعمل فني؛ روايةً كان أو مسرحية. وما أصعب هذا التلخيص إذا كان كاتب الرواية من أولئك الكُتاب الجادين الذين يحاسبون أنفسهم على كل كلمة أو حركة يرسمون بها عملهم! فلنمضِ قليلًا مع هذا النقد لنرى كيف أنهى الدكتور طه نقده بعد أن أبدى بعض ملحوظاته على الرواية.

«وملاحظة أخيرة أذكرها ولا أقف عندها؛ وهي أن صديقي هيكلًا لم يُرِد أن يخلف ظني به فيما يظهر؛ فقد كنت أغيظه أيامَ الشباب بأنه يهمل الاحتياط للغته العربية بين حين وحين، وكان يردُّ عليَّ بأني أنا لا أحسن العربية ولا أجيد كتابتها، وهو قد وفى بحقي عليه، فإنه يهمل في غير موضعٍ حقَّ اللغة ليتيح لي أن أذكِّره بأيام الشباب، ومن يدري لعله يحمل هذا الإهمال على خطأ المطبعة وتقصير المصححين! وما أكثر ما يُحمل على المطابع والمصححين! وهو على كل حال لا يستطيع أن يحمل على المطبعة ولا على المصححين إسرافة في استعمال اسم الإشارة الذي طالما عبثت به من أجله؛ لأني أراه منافرًا بعضَ الشيء للذوق المصري الحديث، وهو هاتيك، وما أكثر هاتيك في قصة هيكل، ولو قد وضع مكانها هذه أو تلك لكان له في إحدى هاتين الكلمتين مقنع وغناء.

أما بعد فكل هذه الملاحظات لا تنقص من قدر الكتاب ولا تنقص من قيمته الفنية، ولا تزهِّدُ محبًّا للفن ومشغوفًا بالأدب الجديد بهذا الاسم في أن يقرأه حفيًّا به حريصًا على الاستمتاع بدقائقه، والشيء الذي أستطيع أن أؤكده مطمئنًا هو أن قارئ هذا الكتاب لن يفرغ من قراءته إلا راضيًا مغتبطًا، راجيًا أن يمتعه هيكل بين حين وحين بقصة تشبه هذه القصة.»

وبهذا ينهي الدكتور طه نقده لرواية «هكذا خلقت»، ألا تريد أن نلقي نظرة مرة أخرى على ما نقلته إليك؛ لنرى معًا كيف كان النقد عند العميد فنًّا باذخًا لا يدانيه فيه أحد من ناقدينا! فإنه يندُر بين نقَّادنا من يمارس هذا الفن، الذي يعتبر ركنًا هامًّا في عالم الأدب، بضمير حر خالص من مختلف أنواع التأثر الشخصي. وخير هؤلاء — على سوئه — من يتعصب لأيديولوجية معينة، أما الغالبية الكاثرة فتقيم أسس نقدها على الأحقاد الشخصية.

ولعل عملي في الميدان الأدبي يتيح لي أن أقدم بعض الأمثلة لتشهد بنفسك كيف أصبح النقد عندنا قائمًا على أي شيء غير الضمير.

كنت مرة جالسًا إلى بعض الأصدقاء، وكان معنا الدكتور لويس عوض، ويبدو أن الدكتور لويس كان قد أفرط في الشراب بعضَ الشيء فواتَتْه نوبة من الصراحة العجيبة؛ فإذا هو يقول لي دون أي مقدمات: «أتعرف لماذا لا نكتب عنك؟» ودون أن أدري ما تعنيه نون الجمع هنا، ودون أن أفكر فيما إذا كان قد اصطنعها للتعظيم أم لتشمل قومًا بذاتهم يعنيهم؛ قلت: «لا.» قال: «لأن طه حسين كتب عن أول كتاب لك … أتراك وُلدت عملاقًا مثل التلفزيون؟» وعلت الحاضرين وَجْمة، وسكت. ولم أشأ أن أناقش ولم أشأ أيضًا أن أقول إن الكلمة الواحدة من أي مقال لطه حسين عني تعدل كلَّ ما كتبه لويس عوض فيما مضى من حياته وفيما هو آتٍ منها؛ فقد خشيت أن يظن أي رد مني يحمل معنى الغيظ أو الغضب أنه لا يكتب عني؛ فأنا مِن هؤلاء الذين يؤمنون أن الفنان لا يحتاج إلى وسيط عند الجمهور، فالفنان بفنه فقط، ولعل الدليل على ذلك أنني ما زلت أعيش في الحياة الأدبية، على الرغم من أن الدكتور لويس، ومن عناهم بنون الجماعة، إذا لم يكن يعني تعظيم نفسه — وهو بهذا خليق — لا يكتبون عني، فإن فعلوا هاجموا.

ولنفس الدكتور حكاية أخرى؛ فقد كتب مرةً مقالتين عن المقارنة بين شوقي وعزيز أباظة، وكانت المقالة الأولى موضوعية إلى حدٍّ ما، وأما المقالة الثانية فقد كانت هجومًا لا يتصل بالموضوعية بسبب، وحدث أن لقيته بعد مقالته الثانية فإذا هو يقول: «لقد كانت المقالة الثانية عنيفة لأني خشيت أن يظن الناس أنني أسوِّي بين شوقي وعزيز.» وفي هذه المرة أجبت: «عليك أن تعلم يا دكتور أن رأيك هذا بالنسبة إلى شاعر مثل عزيز أباظة لا يزيد عن كونه رأي فرد في شاعر يُعتبر أكبر شعراء جيله، أردت أم أبيت.» وكم أَسِفْتُ أنني لم أقل له: إن السبب الحقيقي في هجومك على عزيز أباظة هو أنه رجل اتخذ من التاريخ العربي مسرحًا لأغلب رواياته، ومن الكلمة العربية أساسًا لجميع شعره. وكم

أسفت أنني لم أقل له إن عزيز أباظة خالدٌ مهما تحاول النَّيل منه، أما أنت فلم يظهر لك بعدُ شيء سيُبقي اسمك في عالم الأدب العربي.

أما الدكتور لويس وموقفه من نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم، فهو أيضًا موقف كان من شأنه أن يدعو إلى الدهشة، لولا أنه صادر عن الدكتور لويس عوض؛ فقد كان يُغدق عليهما المديح في الجرائد المصرية ويكيل لهما الثناء، حتى إذا فُصل عن العالم العربي وذهب إلى أمريكا، أباح للناس دخيلةَ نفسه، فهاجم الكاتبَين العملاقَين هجومًا أوشِك أن أقول فاحشًا؛ فقد تخطَّى النقد الأدبي الفني إلى المساس بضميرهما الوطني والفني جميعًا.

والدكتور لويس — في الواقع — يتمتع بكمية من الرضاء عن النفس يُغبط عليها؛ فقد حدث مرةً أنْ كنت جالسًا معه، وجاء ذكر السينما، وفهمت خطأً أن له رواية ستنتج في السينما المصرية، فسألته لأتأكد أنني لم أخطئ الفهم: «ألك رواية ستنتج في السينما؟» فإذا هو يقول في ثقة مطمئنة: «لا؛ إن رواياتي لن تنتَج إلا في هوليود.» وسكت طبعًا لم أحِر جوابًا، وقد مر على هذا الحديث عشر سنوات ونيِّف، ولا أدري بعدُ ماذا كتب الدكتور لويس في عالم الرواية ولكنني واثق أن هوليود لم تنتج له شيئًا إلى الآن.

هذا ناقد. وناقد آخر أراه أحقر من أن أذكر اسمه … هاجمني مرة، وإلى هنا لا بأس عليه؛ ولكنني صُدمت حين توليت العمل بمجلة القصة بهذا الناقد يأتي إليَّ معتذرًا عن نقده قائلًا إنه لم يفهم أدبي حقَّ الفهم، وإنه يريد أن يصلح خطأه بأن يكتب نقدًا لرواية لي كانت قد ظهرت في هذه الأيام، وهو يستأذنني أن أنشر النقد بالمجلة، فقلت له ببساطة: «إنك تستطيع أن تنشر بالمجلة أي شيء تريد إلا أن تنقُد كتابًا لي؛ فلست سخيفًا إلى درجة أن أفسح صفحات في مجلة أعمل بها لمديحي.»

وحدث أن اختار بعض الكتاب الشباب قصة قصيرة لي ضموها إلى مجموعة قصصية تضم أعمالهم إلى أعمال كُتاب آخرين ممن تجاوزوهم في السن، وقد اختارت هذه الجماعة ذلك الناقد ليعلق على القصص المنشورة، فراح يكيل لي المديح؛ فعجبت، ومضت الأيام وسافر هذا الناقد إلى لبنان فإذا بي أسمع أنه يهاجمني هناك هجومًا مُرًّا.

وهذا ناقد. وناقد آخر نشب بينه وبين المرحوم محمد عبد الحليم عبد الله خلاف، فإذا هو يقول لي: «طيب يا عبد الحليم هو أنت مش حتكتب روايات بعد كده! والله لأوريك!»

ولك وحدك أن تقدر مقدار الحق في نقدٍ صدَر قبل أن يصدر العمل الذي ينقده. وهكذا ترى أن الجمهور على حق حين تنعدم ثقته بالنقاد، فهم في وادٍ والجمهور في وادٍ

آخر، والعجيب أن هؤلاء النقاد جميعًا إما تلامذة للدكتور طه أو هم من أجيال لاحقة به، ولكن يبدو أن النفوس إن كانت مريضة فلا أدب يفيد ولا أديب، كما يقولون، ولكن هذا لا يمنع، ما دمت قد قدمت هذا الحديث عن النقاد، أن أذكر آخرين قلة جديرين بكل تقدير وإكبار؛ ومنهم على سبيل المثال الدكتور شكري عياد والدكتور علي الراعي، ولعل هناك آخرين لا تسعفني الذاكرة بأسمائهم الآن.

عودًا بنا إلى ذلك الحديث العذب الذي استقبل به الدكتور طه عمل زميله وصديق عمره الدكتور هيكل، أتراك لمست الإنصاف في الحديث؟ فهو يمتدح العمل في موضوعية وأصالة مبينًا ما يدعوه إلى هذا المديح، ثم هو يداعب الدكتور هيكل مداعبة الأخ لأخيه، ولا يعدو مع ذلك الحقيقةَ التي يرتئيها؛ من أن الدكتور هيكل لا يُعنى باللغة العنايةَ التي ترضي الدكتور طه. ويأبى ضمير الدكتور طه الأدبي أن يعدو هذه الملاحظة ويُصِرُّ أن يثبتها في نقده، على رغم الصداقة الوطيدة التي تصله بالدكتور هيكل، وعلى الرغم من معرفته التامة بمكانة الدكتور هيكل الأدبية في مصر وفي العالم العربي أجمع، بل والدكتور طه يعلم أيضًا أي شخصية ضخمة هو الدكتور هيكل بين عمالقة جيله. ولكن شيئًا من هذا لم يمنع الدكتور طه أن يقول رأيه بصراحة ووضوح وبرقة أيضًا وكياسة بالغتين.

وننتقل إلى نقد آخر للدكتور طه، ولنرَ ماذا قال عن خالدة نجيب محفوظ «بين القصرين» كان عنوان المقال «بين القصرين؛ قصة رائعة للأستاذ نجيب محفوظ»، ثم يبدأ المقال هكذا: «فقد أُتيح له في هذه القصة الرائعة البارعة نجاحٌ ما أرى أنه أُتيحَ مثله منذ أخذ المصريون ينشئون القصص في أول هذا القرن، ولكن الأدب المعاصر، كغيره من الآداب على اختلاف عصورها، وكغيره من الإنتاج العقلي؛ شيء نفهمه نحن ولا يفهمنا، ونقدِّره نحن ولا يقدرنا، ونشعر نحن بما يتاح له من نجح وما يفرض عليه من إخفاق، ولا يشعر هو برضانا عنه أو سخطنا عليه.

فلأقدم تهنئتي إذن كأصدقِ وأعمقِ ما تكون التهنئة إلى كاتبنا الأديب البارع نجيب محفوظ، ولأقدمها إليه بلا تحفُّظ ولا تحرُّج؛ فهو جدير بها حقًّا؛ لأنه أتاح للقصة أن تبلغ من الإتقان والروعة، ومن العمق والدقة، ومن التأثير الذي يشبه السحر، ما لم يُتِحْه لها كاتب مصري قبله.

وما أشك في أن قصته هذه «بين القصرين» تثبُت للموازنة مع ما شئتَ من كتَّاب القصص العالميين في أي لغة من اللغات التي يقرؤها الناس.

وما رأيك في قصة تتجاوز صفحاتها المئات الأربع، وتقرؤها منذ تبدأ إلى أن تنتهي، فلا تحس بها ضعفًا، ولا تشعر فيها بفتور في أي موقف من مواقفها، ولا تثير فيك إحساسًا بأن الكاتب على إطالته قد أدركه شيء من الإعياء، أو أصابه شيء من التراخي، أو ناله ما ينال الكتَّاب المطوِّلين من هذا الجهد الذي يدعو إلى شيء من الراحة والتنفس في ذلك؟

بل ما رأيك في قصة تتجاوز صفحاتها المئات الأربع، وتقرؤها أنت فلا تشعر في أي وقت من أوقات القراءة بالحاجة إلى أن تستريح منها إلى غيرها من الكتب، أو تستريح من القراءة إلى غيرها من ألوان العمل، وإنما يتجدد نشاطك إلى المضيِّ في قراءتها دون أن يجد الملل أو السَّأَم أو الضعف أو الفُتور إلى نفسك سبيلًا؟ وأنت جدير أن تأخذ في قراءتها فلا تدعها حتى تتمها، لولا أن ظروف الحياة تحول بينك وبين ما يجب من ذلك، وتضطرك إلى الوقوف لتأتي عملًا لا تستطيع تأجيله أو تقرأ شيئًا لا سبيل إلى إرجاء قراءته.

ثم أنت لا تكاد تفرغ من هذا العمل الذي صرفك عنها حتى تعود إليها مدفوعًا إلى هذه العودة، دفعًا لا تستطيع مقاومته ولا الامتناع عليه.

بل أنت لا تفرغ من هذه القصة لتنصرف عنها إلى غيرها من فنون القراءة وألوان العمل، وإنما أنت مضطر إلى أن تفكر فيها تفكيرًا طويلًا متصلًا، وربما أخذت فيما يجب أن تأخذ فيه من أعمالك وقراءاتك، واضطربت فيما يجب أن تضطرب فيه من شئون الحياة، ولكنك ترى نفسك بين حين وحين مضطرًّا إلى أن تعود إلى التفكير فيها، والإعجاب بها، والثناء عليها بينك وبين نفسك، والتحدث عنها إلى الناس حين تلقى الناس.

تقف بعقلك وقلبك عند هذا الموطن من مواطنها، أو هذه الصورة من صورها، فلا تكاد تتحول عنه إلا لتقف عند موطن آخر أو صورة أخرى.

وقد يمضي الوقت الطويل بعد فراغك من قراءتها وإذا أنت على ذلك تعود إليها، فترى أنك لم تنسَ منها شيئًا؛ لأن قراءتك الأولى لها قد ثبَّتت أحداثها وصورها وأحاديثها في نفسك تثبيتًا.

بهذا كله شعرت أنا، وبهذا كله شعر غيري من القلة الذين لقيتهم وتحدثت إليهم عنها؛ فإذا هم قد قرءوها وتأثروا بها كما تأثرت، وقدَّروها كما قدَّرتها، وأحسوا روعتها مثلما أحسست، وألحَّت على عقولهم وقلوبهم كما ألحَّت على عقلي وقلبي.

ومصدر هذا كله فيما أرى أن الكاتب يحقق في هذه القصة، تحقيقًا رائعًا، خصلتين يبلغ بهما الأثر الأدبي أقصى ما يقدَّر له من النجاح؛ وهما الوحدة التي لا تغيب عنك

لحظة، والتنوع الذي يذود عنك السأم، ويخيَّل إليك أنك تحيا حياة خصبة حافلة مختلفة المظاهر والمناظر والأحداث.

فأنت تتنقل في كل هذه المظاهر والمناظر والأحداث، لا كما يتنقل المتنزِّه في بستان يختلف فيه الزهر والثمر والشجر، بل كما يتنقل الإنسان في حياة مضطربة لا يمر يوم من أيامها أو ساعة من ساعاتها إلا لقيه فيها حدثٌ من الأحداث، يُرضيه أحيانًا ويُسخِطه أحيانًا، ويثيره مرةً ويردُّه إلى الهدوء مرة أخرى.»

أرأيت كيف يكتب الأستاذ الكبير عن عمل كبير؟ لقد مدح ولم يتَأَسْتذْ، وقدَّم إعجابه صريحًا نقيًّا واضحًا متدفقًا؛ لأنه طه حسين. ولأنه طه حسين لا يستكبر أن يقول: فقد أتيح له في هذه القصة الرائعة البارعة نجاحٌ ما أرى أنه أتيح مثلُه منذ أخذ المصريون ينشئون القصص في أول هذا القرن. وطه حسين من أول من أنشئوا القصة المصرية في أول هذا القرن. ولكنه العملاق الضخم الراسخُ القَدم، الوطيدُ الثقة بنفسه، المترفِّع عن الصغار، يعلن في هدوء ووضوح وإبانة أن كاتبًا قبل نجيب محفوظ لم يُتَحْ له ما أتيح لنجيب من نجاح.

ثم أرأيت كيف يتكلم الدكتور طه في صراحة وصدق عن صلتنا بالأدب الحديث، على الرغم من أن كتبًا كثيرة له تُرجمت إلى لغات أجنبية، ولكنه يعلم أننا، نحن الأدباء العرب، منفصلون عن الأدب المعاصر، فنحن نفهمه وهو لا يفهمنا، ونحن نقدِّره وهو لا يقدِّرنا، ونحن نشعر بما يتاح له من نُجْح وما يُفرَض عليه من إخفاق، ولا يشعر هو برضانا عنه أو سخطنا عليه.

ثم لننتقل إلى أديب آخر وموقف العميد منه، وليكن أديبنا يوسف السباعي، ولننظر معًا موقف الدكتور طه منه. ولعل يوسف السباعي من أكثر أدبائنا إثارةً للجدل حوله.

فأنت تجد المتحمسين له الذين يقرءون كل ما يكتبه في شغف واستمتاع، وفي نفس الوقت تجد النقاد، وبعضًا منهم بصفة خاصة، يَلْوون عنه أعناقهم في صَلَف وتكبر، وهو يوسف السباعي، يمضي في طريقه سعيدًا بهؤلاء الذين يقرءون له ويستمتعون منه، في مصر وفي العالم العربي أجمع، غيرَ حافل في الوقت نفسه بهؤلاء المشقشقين من النقاد، الذين يحبون أن يُظهروا مبلغ ثقافتهم بالغضِّ من شأنه أو إهمال أعماله، بينما الأعمال تشق طريقها إلى القراء غير آبِهة برأي هؤلاء النقاد، ومن يدري لعل هؤلاء النقاد، وكُره الجمهور لهم، يجعل أعمال يوسف أكثر قَبولًا عند القراء، ويجعل القراء أكثر شغفًا بها.

كتب الدكتور طه عن أربع روايات ومسرحية ليوسف السباعي. وله في كل رواية من هاته الروايات رأي بطبيعة الحال، ولكن رأيه في يوسف السباعي يوشك أن يكون واحدًا لم يتغير في أي من هذه المقالات.

فنجده يقول مثلًا عن رواية طريق العودة: «قصة رائعة بأوسع معاني هذه الكلمة وأدقها، وما أعرف أني قرأت للأستاذ يوسف السباعي بعد قصته البارعة السقَّا مات شيئًا يشبه هذه القصة في روعتها وإتقانها وإمتاعها. والغريب في أمرها أنها تبدأ هادئة مطمئنة وحديثًا مألوفًا لا يؤذِن بشيء من جودة، فضلًا عن الروعة. وأعترف بأني مضيت في قراءة الفصول الأولى منها كسلًا أو أشبه شيء بالكسل، وربما نازعتني نفسي إلى الإعراض عنها والأخذ في شيء أنفع منها وأشد إمتاعًا. ولكني عودت نفسي إذا بدأت كتابًا أن أتمه مهما تكن الصوارف عنه والمزهِّدات فيه، فلا أحكم على الأثر الأدبي بجزء منه، وإنما أستقصيه من أوله إلى آخره قبل أن أقول فيه شيئًا أو أُصدر عليه حكمًا.

وقد مضيت في الكتاب واستقصيته، فحمدت الكرى حين أصبحت، وأصطنع هذه الجملة عن عمد لأني كنت أقرأ هذه القصة ليلًا، وأتممتها ذات يوم حين ارتفع الضحى، وأشهد لقد قرأتها مرتين إعجابًا بها ورضًى عنها. والغريب من أمرها أيضًا أنها خلت، أو كادت تخلو، من الخطأ المروع في اللغة العربية، وهذا نادر فيما يكتبه صاحبها.»

أحب أن أقف قليلًا بعد هذه الفقرة، لأحكي لك عن نقاد شهدتهم يذهبون إلى التسجيل في الإذاعة ليناقشوا أعمالًا، لم يقرءوا منها شيئًا أو قرءوا بضعة أجزاء متناثرة، وقصدوا إلى الإذاعة ليسجلوا رأيهم وليوقعوا استئمارة الصرف.

أما طه حسين فقد أخذ نفسه إذا بدأ كتابًا أن يتمه ولا يحكم على الأثر الأدبي بجزء منه وإنما يستقصيه من أوله إلى آخره قبل أن يقول فيه شيئًا أو يصدر عليه حكمًا، بل كثيرًا ما يقرأ العمل مرتين، ولا يجد غضاضةً أن يقول هذا. وهكذا أصبح طه حسين طه حسين، وهكذا سيظل النقاد الآخرون في وادي الخمول والهَزْل والهُزال إلى أبد الآبدين.

نعود إلى طه حسين ويوسف السباعي، فالدكتور طه يرى أن يوسف السباعي من أبرع القصَّاصين ومن أكثرهم جاذبيةً للقارئ، ويرى في أسلوبه أنه أخَّاذ، يتسم بخفة الظل والرشاقة.

وأسلوب القصة مختلف؛ فيه الفكاهة الحلوة التي تصور خفة روح الكاتب حين يصف الدعابة والعربدة والمجون، وفيه الجد الرقيق الذي يصور الحب الناشئ ونقاءه ونزاع النفوس إلى أهوائها، وضبط الضمائر لهذه الأهواء.

وفيه الدعابة المرحة التي تصور وداعة الأطفال ونقاء نفوسهم وسذاجة أعمالهم وأقوالهم، وفيه بعد ذلك كله هذا الجد المُر الذي تنخلع له القلوب وتضطرب له الضمائر أشدَّ الاضطراب.

ولكن الدكتور العميد يأخذ على يوسف دائمًا عدم اهتمامه باللغة، فتجده يشير إلى ذلك إشارةً عابرة في هذا النقد لرواية «طريق العودة»، ولكنه يبلور هذا الرأي بعنف في مقالته عن رواية «إني راحلة»، ثم هو يعود إلى هذا الرأي مرة أخرى بصورة لعلها أخفُّ وقعًا وأيسر قسوةً في مقالته عن رواية «ليل له آخر».

«وإذا لم يكن بدٌّ من النقد وشيء من القسوة على الكاتب، فلأكتف بالأسف الشديد على ما في القصة من هناتٍ تتصل باللغة والنحو، وهذه الصفات مبثوثة في القصة كلها، لا تملؤها لحسن الحظ، ولكنها تظهر فيها بين حين وحين، فيضيق بها القارئ ويأسف لها أشدَّ الأسف، إذا كان هذا القارئ يشاركني الحرص على اللغة العربية الفصحى … والضيقَ بكل ما يسوءها، قل أو كثر، وما أكثر ما رجوت من الكاتب الصديق أن يتحقق أو يعرض قصته قبل أن تُنشر على من يحقق له سلامتها وبراءتها من كل خطأ عربي!»

وهكذا لم تستطع الصداقة الوطيدة التي تقوم بين الدكتور طه ويوسف أن تُعفي كاتبنا من نقد الدكتور طه له حين يتصل الأمر بشأن اللغة. ولم يستطع الإخلاص الذي يكنُّه يوسف ويبديه للدكتور طه في كل مناسبة أن يكفَّ قلم الدكتور طه عن مؤاخذته على عدم اهتمامه باللغة، بل لم يستطع إعجاب الدكتور طه بالفن الروائي عند يوسف أن يعفي هذه الروايات من هجوم الدكتور طه فيما يتصل باللغة، إنه الأستاذ الأصيل الذي يحاسب نفسه على رأيه الأدبي أولًا وقبل أي معنيٍّ آخر.

وحين يكتب الدكتور طه حسين عن «دموع إبليس» للأستاذ فتحي رضوان يُبدي رأيه في جفاف الرواية بأسلوب رائع أخَّاذ.

«وأنت تقرأ القصة فلا تجد فيها رمزًا ولا إيماءً، وإنما تجد فيها تصريحًا واضحًا كل الوضوح، منذ تبدأ القصة إلى أن تفرغ منها، فالأشياء مسماة بأسمائها، والأشخاص مسمَّون بأسمائهم، والأحداث تقع في أرض يسكنها الناس ويشقَوْن فيها ويسعدون ويحسنون فيها ويسيئون، وأنت تستطيع أن تضع هذه الأرض حيث شئت من بلاد الله.

تستطيع أن تتخيلها في مصر لأن الأسماء أمامك كلها عربية، ولأن البيئة تشبه بيئتنا المصرية في القرى، وتستطيع أن تتخيلها بلدًا آخر؛ لأن الشقاء والسعادة والغنى والفقر والنعيم والبؤس، كل ذلك، يعرض للناس حيث يكونون. ومع ذلك فأنت تشعر أثناء

القراءة بأن أحداث القصة تقع في عالم آخر قريب من الأرض، ولكنه بعيد عنها يوشك أن يكون فيها، لولا أن هؤلاء الأشخاص، الذين يذهبون ويجيئون ويختصمون ويتفقون، يحيط بهم شيء من الغرابة يُدنيهم منك ويُنئيهم عنك، فهم بينَ بين. وهذا أول ما يرضيك عن هذه القصة؛ لأنه يخرجك من الأطوار المألوفة للناس دون أن يبعدك عنهم، فأنت حين تقرؤها توشك أن تكون في شيء يشبه الحلم، وإن كان أدنى إلى الحق منه إلى الحلم.

ولست أدري كيف يكون موقع هذه القصة من النظارة المصرية لو عُرضت عليهم ممثلةً تمثيلًا متقنًا كلَّ الإتقان؛ أيصبرون عليها أم يقصُرون عن المضي معها إلى آخرها!

ذلك أن القصة صارمة صرامةً متصلة لا يكاد الضحك أو الفكاهة يُلمَّان بها إلا قليلًا، وصرامتها تأتيها من أن كاتبها يفلسِفُ كل شيء، ويفلسف كل كلمة من كلماتها، فموضوعها نفسه فلسفي، وهو الصراع بين الخير والشر في حياة الإنسان والشيطان جميعًا.

وحوارها فلسفي منذ يبدأ إلى أن ينتهي، لا يعرض للطبيعة ولا لفلسفة العلم، ولا يبعد عن الناس، ولكنه قريب منهم عسير عليهم؛ فهو تحليل دقيق صادق فيه كثير من الروعة، ولكن هذه الروعة الصارمة التي لا تحب لعبًا ولا تندُّرًا.»

ويمضي الدكتور العميد في تلخيص القصة ثم ينهي مقالته الرائعة.

«والقصة رائعة اللفظ قد كُتبت في لغة عربية رائعة، لولا هناتٌ تعترضك هنا وهناك، ولكنها قليلة الخطر، وإن كنت أحب للكاتب أن يبرأ من أمثالها. وأنا بصدد ذلك أهنئ الكاتب بإتقانه وإمتاعه، وما أشك في أن قرَّاءه سيشاركونني في هذه التهنئة، وفي تهنئته بشيء آخر، وهو أن أعباء الوزراء لم تحُل بينه وبين هذه اللحظات الخصبة التي يسعد فيها الإنسان بالخَلوة، بين حين وحين، إلى القلم والقرطاس.

لن أستطيع، ولعل غيري يستطيع، أن يستقصي طه حسين الناقد وأثرَه على الأدب العربي طول فترة نيَّفت على الخمسين عامًا، ولكني واثق أنه ليس بين كُتَّاب العربية قاطبة من لم يكن يطمع أن ينال كلمة رضًى من طه حسين، مكتوبةً كانت هذه الكلمة أو غير مكتوبة، وأنا لا أستثني من هؤلاء الأدباء أحدًا كبيرًا ما كبر ذلك الأديب.

وأنا أيضًا عاجز أن أستقصي مواقف طه حسين عميد الأدباء العرب بالنسبة إلى الأدباء، وعاجز أن أتابع مواقفه كإنسان كبير، خاض الحياة مكفوف البصر فقيرًا، يخذُله من كان يرجو منه العون، فإذا هو يقف في دفاع الحياة يتحدى هذا الدفاع بغير سلاح، إلا ثقافته وإلا ثقته الوطيدة بذكائه وعقله، واطمئنانه إلى موهبته الفنية الباذخة.

وينشئ أسلوبه هذا الذي اشتهر به، والذي به يحطم قوالب الإنشاء العربي، ويندلع في الأدب العربي الحديث عملاقًا يستخدم اللفظ، بعد أن كان الأدباء يخدمون اللفظ، على حد قول سارتر، ويختار من السياسيين أبعدهم عن عامة الناس، مؤثِرًا أن يكون مع المثقفين على أن يكون مع الذين يواكبون الجماهير ويتحسسون رغباتهم، ويثبت وطائده على الأرض الصلبة فارضًا نفسه وثقافته على الأصدقاء والأعداء، داعيًا إلى حرية الفكر وحرية البحث، داعيًا إلى تحرير النفوس والعقول والعقائد من كبول التقاليد، ومن أيدي المتزمتين، ومن أعباءِ ما تواضع عليه الناس، كل ذلك مع التزام تام بالحفاظ على اللغة والأخلاق، وعلى ما يقبله العقل وتقبله النفس من التقاليد، فثورته ثورة ذات قانون؛ فهي ثورة مثقفة، يحكمها العقل وتحكمها الأخلاق، وتدعو في ذات الوقت إلى الحرية، وتدور حوله أو يديرها، فإذا هو عنيف، كأشدِّ ما يكون العنف، حين يتصل الأمر بحرية إنسان، يقف إلى جانبه، يؤازره على الطاغوت ويمكِّنه من حريته، وإن كان في موقفه هذا خسرانٌ له وتَلَفٌ لموارده أو لمنصبه.

يدخل معه عبد الرحمن الشرقاوي في نقاش حول وظيفة الأدب ودور الأديب، ويرى الدكتور طه أن الأدب لا ينبغي له أن يوظَّف لأحداث الثورة الاجتماعية، وفي صيف ١٩٥٣م ينشر الشرقاوي مقالًا في جريدة المصري يسأل فيه الدكتور طه حسين عن دوره في حماية حرية الفكر، وهو الرائد الذي علَّم الذين أتوا من بعده كيف يدافع القلم عن الحرية، ويشيع في المقال عتب على الدكتور طه؛ لأنه لم يهاجم هؤلاء الأساتذة الأمريكيين الذين جاءوا إلى كلية الآداب ليدرِّسوا بها الإنجليزية بدلًا من الإنجليز؛ فإذا هم ينتهزون الفرصة ويقومون بما اعتبره الشرقاوي دعايةً سياسية. ويغضب الدكتور طه من هذا العتب، ويكتب ردًّا عنيفًا على مقال الشرقاوي ويتوجه بنفسه إلى جريدة المصري حاملًا المقال. ويلْقاه أحمد أبو الفتح ويقرأ المقال فيجد الدكتور طه يهاجم الشرقاوي هجومًا قاسيًا، متَّهمًا إياه أنه يروِّج للفكر الاشتراكي الذي كان محرمًا آنذاك، ويقول أحمد أبو الفتح للدكتور طه إن عبد الرحمن الشرقاوي مطلوب للمعتقل، متهمًا بالترويج لمبادئ هدامة في روايته «الأرض» التي كانت تُنشر مسلسلةً في المصري في ذلك الحين، كما أنه متهم بهذه التهمة ذاتها من واقع مقالاته التي كان يجادل بها الدكتور طه، وينفُضُ الدكتور طه عن نفسه الغضب، وينسى أن شابًّا من أبنائه عتب عليه عتابًا بلغ به إلى هذا الغضب. ويعود الدكتور طه إلى طه حسين أبي الأدباء جميعًا؛ فهو يسترد المقالة ويحذف منها كلَّ ما يتضمن الهجوم الصريح على عبد الرحمن الشرقاوي، ويكتب بدلًا من فِقرات الهجوم فقرات أخرى فيها تحية وإطراءٌ لعبد الرحمن الشرقاوي.

ذلك هو طه حسين الذي رضي أن يجعل نفسه غير متفهم لرواية «هارب من الأيام»؛ ليحمي كاتبها من الطاغوت، هو نفسه لم يتغير.

وفي يوم بينما كان الدكتور طه حسين مستشارًا لوزارة المعارف عهد الوفد عام ١٩٤٢م، يرسل إليه عبد الفتاح الشناوي، المدرس وقتذاك بمدرسة أهلية بالقاهرة، خطابًا شديد اللهجة يهاجمه هجومًا قاسيًا عنيفًا. وأْذَنوا لي أن أوقف القصة هنا لأقدم إليكم عبد الفتاح الشناوي. إنه من خريجي العلوم، وكان قبل تخرُّجه زعيم طلبة الأحرار الدستوريين بالكلية. وقدمه أبي أول ما عرفه حين سمع، وهو سكرتير عام حزب الأحرار الدستوريين، أن البوليس يحاصر دار العلوم، وأن الطلبة لا تستطيع الخروج، فقصد إلى دار العلوم فوجد الشناوي في ملابسه الداخلية ممسكًا بخرطوم ماء يذود به البوليس أن يدخلوا إلى الكلية. ومنذ ذلك الحين تعرف الشناوي إليَّ، فحين اختير وزيرًا للمواصلات في وزارة أحمد ماهر، اختار الشناوي سكرتيرًا له، ثم أصبح مديرًا لمكتبه، وقد لازمه طوال فترة بقائه في الوزارة، وهي فترةٌ امتدت خمس سنوات، لم يتركه فيها الشناوي إلا فترةً لا تتجاوز الأيام القلائل، تلك التي قضاها وزيرًا أصيلًا للخارجية، وحين ترك أبي الوزارة كان الشناوي في منصب مدير مكتب وزير الأوقاف، وقد كانت آخر وزارة تولاها أبي. وبقي في هذا المنصب فترة طويلة بعد ذلك.

وأنا لم أعرف، وما أظنني سأعرف، وفيًّا في مثل وفاء عبد الفتاح الشناوي، كما أنني لم أعرف، وما أظنني سأعرف، رجلًا جريئًا في الحق وأخًا ومُعينًا على الدهر، ومحبًّا للخير في غير تظاهر، وبعيدًا عن الشبهات في غير سماجة، وقريبًا إلى الله في غير تزمُّت، مثل عبد الفتاح الشناوي.

وفي كتاب طه حسين أحب أن أروي عن الشناوي قصة غير تلك مع الدكتور لتعرف منها جانبًا من جوانبه.

كان مديرًا لمكتب أحد الوزراء وجاء خطاب من مدير مكتب الوزراء في ذلك الحين، معنونًا باسم الوزير مباشرة، فإذا الشناوي يطلب مدير مكتب رئيس الوزراء: حضرتك مدير مكتب رئيس الوزراء؟

– أيوه … نعم؟

– حضرتك بعثت خطابًا إلى وزير الأوقاف بتوقيعك؟

– أيوه … نعم.

– هذا لا يجوز.

– ايه هو الذي لا يجوز؟

– مدير المكتب يجب أن يبعث إلى مدير المكتب والوزير يبعث إلى الوزير حتى لو كان الوزير رئيس مجلس الوزراء.

– أنت عارف بتكلم مين؟

– نعم؛ مدير مكتب رئيس مجلس الوزراء.

– أنا ...

وذكر المتحدث اسمه ومنصبه، وهو اسم ومنصب تنخلع له الأفئدة الثابتة في هاته الأيام، ولكن الشناوي ظل على ثباته.

– لا بأس ... منصبك هذا وضع آخر، ولكنك هنا مدير مكتب رئيس الوزراء وأنا أكلمك بهذه الصفة.

– الله يلعن أبوك ابن كلب.

– يلعن أبوك ابن ستين كلب.

– أنت ابن ...

لا يستطيع القلم أن يكتبها.

– أنت ابن ستين ...

ما يزال القلم لا يستطيع أن يكتبها.

ويقفل عبد الفتاح الشناوي التليفون، ولم يكَد حتى يناديه وزيره.

– أنت عملت ايه؟!

– حافظت على كرامتك.

– وأنا قلت لك حافظ لي عليها! ... أنا لا شأن لي ... مليش دعوة.

– وأنا طلبت منك حاجة ... ملكش دعوة ... لا شأن لك أنت.

ويذهب الشناوي إلى منزله ينتظر القتل أو يتفاءل وينتظر الاعتقال، ولكن الليل يمر بسلام ويذهب الشناوي في صباح اليوم التالي إلى الوزارة، ويدق عنده جرس التليفون.

– مين؟

– أقول ولا تشتمني؟

– أنا لست قليل الأدب.

– أنا ...

ويذكر اسمه الذي تنخلع له الأفئدة الثابتة، ويكمل حديثه.

– أنا غلطان وأعتذر … هل يكفي هذا الاعتذار أم تريدني أن آتي إلى مكتبك لأعتذر إليك؟

– لا، هذا يكفي، وشكرًا.

وينتهي الحادث عند هذا، وتمضي سنوات يلتقي فيها هذا الرجل، الذي كانت تنخلع من هَوْل اسمه الأفئدة، بابن أخ لعبد الفتاح الشناوي فيسأله إن كان قريبًا له، فيقول إنه عمه، فيقول إنه من الرجال القليلين الذين عرَفهم في حياته، ويروي هذه الواقعة على الجمع الذي كان حاضرًا.

وبهذه الجرأة أرسل الشناوي إلى الدكتور طه حسين خطابه. وقد كانت تكفي الدكتور يومذاك مكالمةٌ تليفونية للمدرسة حتى يجد الشناوي نفسه في اليوم التالي في الطريق العام بلا وظيفة، ولكن شيئًا من هذا لا يحدث، بل يحدث شيء آخر مختلف كلَّ الاختلاف. يزور الدكتور محمد عبده عزام الأستاذ الشناوي، ويفاتحه في الخطاب الذي أرسله إلى الدكتور طه حسين.

– وكيف عرَف الدكتور طه صلتي بك؟

– إنني تلميذ له، وهو يعرف أنني من المطرية، وقد ذكرت المطرية في خطابك، وقد سألني عنك فقلت إنك خريج دار العلوم، وأنك مدرس بالتعليم الحر؛ ظنًّا مني أن هناك من يسعى لتعيينك بالمدارس الحكومية. وإذا به يفاجئني بأن يطلب من سكرتيره أن يُريَني الخطاب الذي أرسلته إليه، أهذا كلام؟

– المقصود … وماذا حصل؟

– ماذا حصل؟ تُهت ولم أجد شيئًا أقوله.

– وهو؟

– سكت مليًّا ثم قال لي يا عزام أريدك أن تحضر لي الشناوي؛ حتى أعترف له شفاهًا بالحق فيما يأخذه عليَّ من مآخذ، وحتى أقول له إن كل ما جاء في خطابه هو الصدق بعينه، أما أن أرد عليه كتابةً فهذا لن يكون. وضحك ضحكة المنتصر على نفسه أن استطاع أن يتغلب على غضبه.

وأراد الدكتور عزام أن يصحب الشناوي إلى الدكتور طه، فخجل الشناوي أن يلقاه بعد هذا الهجوم، وأرسل إليه خطابًا يشكر له قبوله لنقده العنيف واحترامه لحرية الرأي. ومرت السنون وانتقل المغفور له الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق إلى رحمة الله، وندب الزعيم المصري العظيم المغفور له عبد العزيز فهمي باشا عبد الفتاح الشناوي ليُلقي كلمة

عنه في حفل التأبين، وهناك التقى بالدكتور طه، وكان من خطباء الحفل، وحين انتهى الشناوي من إلقاء كلمة عبد العزيز باشا، فوجئ بسكرتير الدكتور طه يستدعيه إليه، فإذا هو يبادره: «يا شناوي المطرية دقهلية، لقد أرسلت إليك محمد عبده عزام لتأتي إليَّ؛ حتى أعترف لك بصدق رسالتك، ولكنك أبيت. وها قد تقابلنا اليوم من غير ميعاد، وما دمت محل ثقة أستاذنا عبد العزيز فهمي، فإني يهمني أن أراك.»

فشكره الشناوي على تلطُّفه وسماحته، وظل خجلًا أن يذهب إليه.

أذكر هذه القصة وأذكر قصة أخرى لوزيرٍ أَمَر مدير مكتبه أن يحمل خطابًا إلى رئيس وزراء، فإذا رئيس الوزراء يأمر بمدير المكتب أن ينتظر حتى يتسلم الرد، وإذا الرد يتمثل في القبض على مدير المكتب ... مدير المكتب وليس الوزير الذي كان قد أرسل خطابًا شديد اللهجة إلى رئيس الوزراء الطاغية.

وأذكر قصة الشناوي فأعود وأذكر ما كان بين الدكتور طه وعبد الرحمن الشرقاوي عام ١٩٦٢م، حين دار حوار بينهما حول التجديد في الشعر. وكتب الدكتور طه مقالًا عنيفًا يهاجم فيه المتأدبين من الشبان، وعاد عبد الرحمن يعتب على العميد إطلاق كلمة المتأدبين على الأدباء الشبان، فرد الدكتور طه بمقال أشد عنفًا اتهم فيه عبد الرحمن بأنه يجهل اللغة العربية، فالأديب والمتأدب بمعنًى واحد ... ورد الشرقاوي بمقال يوضح للقراء المصدر الذي اعتمد عليه في اعتباره قيام فارق بين الكلمتين في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، ورجا الدكتور طه أن يوضح للقراء المصدر الذي اعتمد عليه في اعتبار الكلمتين بمعنًى. فإذا بالدكتور طه يطلع على الشرقاوي وعلى القرَّاء جميعًا بمقال يعتذر فيه عن هذا الخطأ قائلًا: «قُرئ عليَّ القاموس المحيط خطأً.»

إنه هو طه حسين الذي عرف خطاب عمر بن الخطاب الشهير فاتخذه نبراسًا له بأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي. وهو طه حسين الذي تجعله ثقته الوطيدة بنفسه يعترف بالخطأ. وما أرى اعترافه هذا إلا ترفعًا عن الجدال فيما اتضح له صوابه.

وحين فُصل الدكتور طه حسين من جريدة الجمهورية عام ١٩٦٤م، وهو رئيس تحريرها يومذاك، وكانت موجة التشتيت قد اجتاحت عشرات من محرريها وكُتَّابها، وراحت القرارات تلقي رءوسًا إلى الفصل وأخرى إلى النقل لمؤسسات صناعية وتجارية، وكان طه حسين يومذاك في أشد الحاجة إلى مرتَّبه، وطُلب إليه أن يرفع تظلمًا على سبيل الشكل حتى يتاح له أن يعود إلى مكانه، فرفض طه حسين قائلًا: «أنا لا أقبل أن أعاد للعمل في صحيفة تعامل كتَّابها على نحو يدل على الجهل التام بدور الكاتب.»

وهكذا لم يكن غريبًا أن يصبح اسم طه حسين علَمًا على الثقافة العربية، لا في مصر والبلاد العربية وحدها؛ بل في جميع بلاد العالم. وقد بلغ هذه المكانة لا بإنتاجه الأدبي وحده، وإنتاجُه بهذا خَليق، وإنما بلغه بما يُروى عنه من مواقفَ صلبة في الدفاع عن الثقافة والكتاب ودور الثقافة والكاتب في الحياة جميعًا.

كان طه حسين صديقًا للشاعر الفرنسي الكبير أراجون، وكان أراجون قد تعوَّد أن يزور طه حسين كلما عرف أنه في باريس. وذات صيف زار الدكتور طه باريس، وأقام بها بضعة أيام ولم يزُرْه أراجون، على الرغم من أن الدكتور طه ترك له رسالة بالمنزل تنبئه بمجيئه. وعرف أحد المصريين من تلامذة طه حسين أن الدكتور طه عاتب على أراجون، فأبلغ أراجون بهذا العتب، فإذا بأراجون يسارع إلى الدكتور طه ويعتذر له أن رسالته لم تبلغه، ويخرج أراجون ليقول لكل من يلقاه من المصريين أو العرب إن طه حسين كنز ضخم تعتز به الثقافة الإنسانية لا الثقافة العربية وحدها.

ولعل أراجون عرف بموقف طه حسين من الثقافة الإنسانية حين كان رئيسًا لتحرير الجمهورية. وكتب إبراهيم الورداني يهاجم الأدب اليوناني مرتئيًا فيه أنه أدب خرافات وعفاريت، فإذا بطه حسين لا يكتفي بالرد وإنما يهدد بالاستقالة — على حاجته للمرتَّب — إذا عادت الجمهورية إلى نشر هذا المستوى من المقالات.

وبعد؛ فقد قلت لك منذ بدأنا السير معًا في طريق طه حسين إن الذي بيننا هو حديث مطلق حر، لا قيد فيه عليَّ ولا قيد عليك، وإنما أروي لك ما أذكره، كما يقف الابن أمام صورة أبيه يحكي لمن حوله ما كان بينهما من ذكريات. لا … لن أستطيع أن أستقصي الذكريات جميعًا من مواقف طه حسين الشهيرة، فما لهذا اصطحبنا أنا وأنت لنسير في هذا الطريق. وما اصطحبنا كذلك لندرس أو نتدارس طه حسين، فما أنا بهذا … وإنك لواجد عند غيري ما تتوق إليه من دراسة وتدارس، إن كنت إلى هذا تتوق، إنما هو الحديث المطلق الحر؛ فقد كان، طيب الله مثواه، يحب الحديث المطلق الحر، يحب أن يقوله ويحب أن يسمعه. وكان أيضًا يحب مِن محدثه أن يدرك دائمًا أنه إنما يحدث طه حسين. كانت تجلس إليه أستاذة كبيرة من تلامذته، وقالت في أثناء حديثها إنها كانت في المصيف، وفتحت ياء المصيف، كما نقول الكلمة في حديثنا العادي، وإذا بالدكتور طه يقول: مصْيَف؟

فأخذت الأستاذة الكبيرة واستدركت: آسفة أقصد مصِيف … لقد كنت ألقي الحديث ببساطة.

ويقول طه حسين في لهجة الأستاذ المدل على تلميذته: وهل يُتحدث إليَّ أنا ببساطة؟

ولم يرَ رحمه الله حمرة الخجل وهي تكسو وجهها.

كان مهيبًا جليلًا، رأيت أستاذًا من كبار الأساتذة الأجلاء يجلس إليه، وكان هذا الأستاذ معروفًا بتكبره وغطرسته واعتزازه بنفسه، ولكنه أمام طه حسين كان يجلس وذراعاه متشابكتان على صدره، لا يعفيهما من وضعهما هذا المتعب مهما تَطُل الجلسة، وهو يعلم علم اليقين أن الدكتور لا يراه، ولكن احترامه للدكتور كان نافذًا إلى أبعد أعماق نفسه، فذراعاه متشابكتان.

وفي يوم كنت جالسًا إليه، وكان معه أستاذ جامعي من أكبر أساتذة الجامعة، بل من ألمع شخصيات مصر، وكان معروفًا عن هذا الدكتور الجامعي أنه عنيف مع تلاميذه عنفًا لا رحمة فيه ولا هوادة. ودار الحديث وقال الدكتور طه: لا نفس لي للأكل.

– الواحد يأكل بضرسه لا بنفسه.

وإذا بالدكتور طه يقول في هدوء: ما هذه السخافة؟

وذعرت ولكن الأستاذ الدكتور ضحك كأن أباه هو الذي يحادثه.

هكذا كان هو مُنطلقًا بسيطًا قاسيًا في أبوَّة، أستاذًا في تلطف، أبًا للجميع، يحب الجميع أن يكونوا أبناء.

لا سبيل مع الدكتور طه حسين أن تعامل اسمه أو سيرته كما تعامل الأسماء الأخرى أو السير.

فإنني أعتقد أن أديبًا ما لم تُكتب سيرته بالتفصيل الذي كُتبت به سيرة الدكتور طه، ولو لم يكتب فيها إلا خالدة «الأيام» لكان هذا حسْبَها وحسبه. ولكن الواقع أن الكثير قد كُتب بعد ذلك، فقد شغل الدكتور طه النقاد طيلة نصف قرن من الزمان أو يزيد، وقد كان الرجل من أكبر معالم أدبنا العربي إن شاء أحد أن يقدم أدبنا العربي إلى الغرب، ولعلي لا أكون مبالغًا إن قلت: إنه أكبر هذه المعالم وأكثرها شمولًا وأوسعها مجالًا. فكان من المستحيل أن يتكلم شخص عن الأدب العربي الحديث ولا يكون الدكتور طه في مقدمة هذا الحديث.

فمن العبث إذن أن أحاول التنويه بهذه السيرة، ولكنني في الواقع قد وقعت على عدد من مجلة الأدب التي كانت تصدرها جماعة الأمناء برئاسة المرحوم الأستاذ الكبير أمين الخولي. وقد أخذت مجلة الأدب في عددها هذا جانبًا لا أحسب أن مجلة أخرى اتجهت إليه؛ فقد قدمت المجلة ما ليس مشهورًا عن طه حسين وما ليس مشهورًا من أدب طه حسين؛ مقالات قديمة وقصائد لم تُتداول، وقد كنت خليقًا أن أنقل إليك عدد المجلة جميعًا، إلا أنني لا أتسم بالجرأة التي تتيح لي أن أبدأ بدعة لم تكن معروفة، ولعل للتربية المحافظة

التي أحاطت بي منذ بدء حياتي أثرًا في ذلك، ولهذا فأنا لا أجرؤ أن أنقل إليك مواد العدد جميعًا، ولكن لعلني ألتمس الجرأة فأقدم إليك بعض ما جاء في هذا العدد، ولعل من الظريف أن أقدم إليك ما لم يذكره الدكتور طه في كتابه «الأيام» من أسماء أقاربه الذين أشار إليهم دون أن يذكر أسماءهم الحقيقية، أو أولئك الذين لم يشِر إليهم أبدًا؛ فوالد الدكتور طه مثلًا اسمه حسين، وليس في هذا جديد، ولكن لعل الأغلبية الكاثرة ممن قرءوا سيرة الدكتور لا يعرفون أن اسمه حسين علي سلامة، وقد كان علي جد الدكتور طه مشتغلًا بالتجارة في مديرية سوهاج. أما حسين، والد الدكتور طه وإخوته الأحد عشر، فقد كان يشتغل بغادريقة الدائرة السنية بالمنيا، وانتقل إلى مغاغة بوظيفة قباني براتب شهري قدره أربعة جنيهات، وكانت الدائرة السنية تبني لموظفيها مساكن، وقد ابتنت بعض هذه المساكن بقرية أو عزبة تسمى عزبة الكيلو؛ لأنها تبعد عن مغاغة بمقدار كيلومتر. وقد استقر حسين بهذه العزبة منذ عام ١٨٨١م، أي قبل مولد الدكتور طه حسين بثمان سنوات. وقد تزوج حسين من أسرة عوف التي كان يتاجر معها أبوه، وهي عائلة تجار بالخرنفش بحي الجمالية، وبنتهم التي تزوجها اسمها نفيسة، وقد ولدت له ابنتين، هما أمينة وجلفدان. وقد روى لي الدكتور طه عن جلفدان، وأذكر أنه كان يذكر لي اسمها مشيرًا إلى الغرابة أن يكون اسم أخته جلفدان، وهي ابنة رجل من الصعيد. أما نفيسة الأم فقد كان الدكتور وإخوته من أمه ينادونها بالخالة نفيسة، وأمينة الأخت الأخرى هي أقرب أخوة الدكتور طه إليه؛ فقد كانت تُعنى به وتقوم بشأنه في حدب وإشفاق. ويمضي عدد الآداب قائلًا إن صحة نفيسة قد اضطرت حسين علي سلامة إلى زواج آخر سببه النزعة الصوفية السائدة في هذه المناطق، تلك التي نوه بها الدكتور طه في كثير من كتاباته.

وقد كان في المنطقة شيخ صوفي من بلدة تسمى السرارية شرقي سمالوط، وكان من تلاميذه ومريديه علي سلامة جد الدكتور طه لأبيه، وموسى محمد جد الدكتور طه لأمه رقية، وهكذا تم الزواج، ولم يكن حسين هو أول زوج لرقية؛ فهي أيضًا كانت قد تزوجت من قبلُ بالحاج يوسف، وكان الدكتور طه وإخوته يدعونه بالخال يوسف، كما كانوا يدعون زوجة أبيهم الأولى بالخالة نفيسة.

أما أبناء حسين فهُم: أمينة وجلفدان ومحمد توفيق وأحمد حسين، وقد كان يسمى وقت أن وُلد بأحمد عرابي، فحين هُزم عرابي صار اسمه أحمد حسين. وبعد أحمد حسين جاء محمود الذي وصل في التعليم العالي إلى البكالوريا، وتهيأ لدخول مدرسة الطب، ولكن الأجل وافاه مصابًا بالكوليرا في إجازة الصيف، وقد كان لوفاته أثر واضح على الدكتور

فيما رواه بالأيام. وبعد محمود جاء حامد الذي درس ثم اشتغل بوزارة الأوقاف، ثم فاطمة وزينب، ثم طه حسين في عام ١٨٨٩م، ثم عبد العزيز وياسين، وأخيرًا عبد المجيد عام ١٩٠٣م.

وقد ظل الوالد حسين يعمل في شركة كوم أمبو إلى سنة ١٩٣٢م، ثم عاد إلى المنيا، وتوفي رحمه الله سنة ١٩٤٢م، أما والدة الدكتور طه فقد اختارها الله عام ١٩٥١م. ويمضي عدد الآداب بعد ذلك منوِّهًا بطفولة الدكتور طه التي شبت بعزبة الكيلو، مع هؤلاء الإخوة ومع هذا الرمد الذي عولج أعنف علاج وأقساه حتى انتهى بهذه الآفة التي يقول عنها الدكتور طه في ذكرياته:

كانت تؤذيه سرًّا ولا تجاهره بالخصومة والكيد. لم تكن تمنعه من المضي في الدرس ولا من التقدم في التحصيل ولا من النجح في الامتحان، وإنما كانت أشبه شيء بالشيطان الماكر المسرف في الدهاء، والذي يكمن للإنسان في بعض الأحناء والأثناء، بين وقت ووقت، ويخلي له الطريق يمضي فيها أمامه قُدمًا، لا يلوي على شيء، ثم يخرج له فجأةً من مكمنه ذاك هنا أو هناك، فيصيبه ببعض الأذى وينثني عنه كأنه لم يعرض له بمكروه، بعد أن يكون قد أصاب من قلبه موضع الحس الدقيق والشعور الرقيق، وفتح له بابًا من أبواب العذاب الخفي الأليم.

والله وحده يعلم إلى أي متجَه في الحياة كان سيتجه طه حسين لولا هذه الآفة، غير أنه إذا كان لنا أن نشق الغيب ونضرب في المجهول، لأصررنا على أن طه حسين لم يكن يستطيع أن يكون غير طه حسين، مبصرًا كان أو غير مبصر؛ فهذه الطاقة العملاقة لا يردها شيء مهما يكن هذا الشيء خطيرًا خطورة البصر.

ولعله لا يجوز لنا أن نعبر مرحلة الطفولة هذه دون أن نذكر هذه الواقعة الطريفة التي يرويها الشيخ أحمد حسين حين كان يصطحب أخاه طه في الطريق إلى ترعة المجرة، التي تمر أمام بيت علي سلامة والمتفرعة من ترعة الإبراهيمية. وتقابل الأخوين في الطريق جاموسة تأخذ عليهما الطريق الضيق، فيركنان إلى جانبه ناحية الترعة، فما يلبثان أن ينزلقا إليها، فيواجه أحمد بدل الويل ويلين؛ الأول وقوعه في الترعة، والثاني أنه أوقع أخاه طه. كما قالت الوالدة للشيخ نخلة شيخ الكتَّاب، وكان لا بد لأحمد أن يلتقي بعقابه عشرين جريدةً على أكعابه، ظل يذكرها ما امتد به العمر.

وحين ينزل الشيخان إلى القاهرة يعتمدان على القدامى من المجاورين، وقد وجههما والدهما أن يسكنا مع مجاور قديم، هو الشيخ صالح أبو حديد، فسكنا في حوش عطا

وهو حوش مقسم إلى أرباع، كل ربع بترتيبه، والربع كما لا يزال إلى الآن يشبه الثكنة؛ فهو مقسم إلى وحدات تتكون من الغرفة الواحدة على اختلاف في السَّعة، أو بعض الملحقات من المداخل أو المرافق. وفي الغرفة الأولى على اليسار من الربع الأول من حوش عطا، يسكن طه مع أحمد وصالح أبي حديد المجاور الكبير، ويدفعون في الأودة عشرة قروش أجرة شهرية، ومصروف الواحد من الأخوين عشرة قروش للسكنى وغيرها، بعد الزوادة التي ترسل إليهما مع تجار مغاغة الذين يتوافدون تباعًا إلى القاهرة محملين بما تُطيق الأم أن ترسله، لا تنسى حتى أن تحملهم بالخشب مكسرًا ليكون وقودًا ودفئًا.

ويدخل طه الأزهر الشريف قبل بلوغه السن التي كان محددًا يومذاك للانتساب إلى الأزهر، وهي ١٥ سنة. ويتم هذا بطريقةٍ ما. وتمر السنون وينتقل أحمد وطه من الربع الأول في حوش عطا إلى الربع الثاني بالحوش نفسه، وهو سكن التجار، وترتفع الأودة إلى خمسة وعشرين قرشًا في الشهر، ويشارك الأخوين فيها أخوهما حامد وابن أختهما أمينة ومحمد عبد العال ابن خالتهما زينب، الذي شارك في رفقة طه ليفرغ أحمد لشأنه.

ولعل أهم ما ذكر في هذا الحديث هو الأسماء التي أشار إليها الدكتور طه دون أن يذكرها في كتبه. فقد أخذ نفسه في أيامه ومذكراته ألا يذكر اسمًا حتى نفسه أشار إليها بالفتى.

أما ما بعد ذلك من حياة الدكتور طه فأعتقد أنه لا يحتاج إلى إشارة، فجميعه معروف، وقد قدم هذا العدد من الأدب نماذج من مقالات الدكتور طه في ذلك الحين ومن شعره. ولعل أهم ما جاء في هذه النماذج قصيدة نُشرت في جريدة مصر الفتاة قدمت لها الجريدة قائلة: يرى القارئ في القصيدة البليغة الآتية أن صاحبها الأديب الفاضل قد انتهج فيها أسلوبًا يظنه بعض الأدباء من الأساليب الإفرنجية؛ لاتفاقها مع الشعر الإفرنجي في التقاطيع والروي، ولكن هذا النوع لم يفُت العرب في جاهليتهم؛ فقد كانوا ينظمونه ويسمونه المسمط، وقد نظم فيه امرؤ القيس أسماطًا أتى على أمثال منها صاحب لسان العرب في مادة «سمط»، وكان للعرب الأندلسيين اليد الطولى فيه. وتراه في موشحاتهم التي تفنَّنوا في وزنها ورَويِّها، وأبدعوا ما شاء الله التفنن والإبداع.

وإليك ما قاله حضرة الشاعر المجيد صاحب الإمضاء (طه حسين) في قصيدته التي التزم أن يجعلها أسماطًا، وكل سمط أربعة أبيات، ويتفق البيت الأول مع البيت الثالث في الروي والبيت الثاني مع الرابع كذلك، قال حفظه الله ونصر به الأدب:

شادن عطف   عطفه الحبيب
بعد أن صدف   صدفة الملول
كم سبى العقول   قوله الخلوب
يملك القلوب   ثم لا ينيل

* * *

كل ذي بهاء   يمقت الوصال
يظهر الحياء   وهو في صدود
من لدى الهوى   منه بالنوال
إن في الجمال   عثرة الجدود

* * *

إن في الهوى   زلة القدم
فيه كم هوى   ثابت الجنان
قل لذي السنان   أو لذي القلم
كلَّت الهمم   عنه والبيان

* * *

بدؤه مجون   يبهج الحياة
ثم بالجنون   ينتهي الخبر
إنما انتصر   صاحب الأناة
تقتضي مناه   منه أن صبر

وقد أوردت المجلة نماذج كثيرة من شعر الدكتور طه، ونحن بطبيعة الحال حين نذكر شعر الدكتور طه، فإنما نذكره كعلامة تاريخية في أدبه؛ فصاحب هذا النثر الشاهق العملاق لا يمكن أن يكون صاحب هذا الشعر، والظاهر أن موهبة الشاعر تختلف كل الاختلاف عن موهبة الأديب الكاتب مهما يكن هذا الكاتب طه حسين.

وقد سألت مرة الدكتور طه كيف لم تعجب بشوقي وأنت صاحب هذا الأسلوب الموسيقي الرنان؟ وقال الدكتور: لقد أخذت على شوقي أنه يخطئ في التاريخ. ولعل هذه الفترة التي هاجم فيها شوقي من هذه الفترات التي أسف عليها بعد ذلك. وإني لا زلت أذكر يوم أقام أبي حفل تأبين في ذكرى حافظ إبراهيم استمرت ثلاثة أيام بدار الأوبرا،

ووقف المرحوم إبراهيم عبد القادر المازني ليقول: لقد كنا أنا والعقاد نهاجم شوقي وحافظ لنقف على أنقاضهما، فلم ننل إلا من أنفسنا ومن الحق.

وقد اعتذر الدكتور طه عن هذه الفترة جميعًا، وقال إن بعض الناس قد أغروه وهو في زهوة الشباب واندفاعه بهذا الهجوم، وهو يقول بعد ذلك إنه لم يأسف على شيء في حياته أسفَه على هذه الفترة وما كتب فيها من مقالات.

ومنذ قريب وقف العقاد العظيم يمتدح شوقي ولكنه في كبريائه، ولا أقول كبره، لم يذكر شيئًا عن سابق هجومه عليه.

إن طه حسين يستطيع أن يعتذر عن حفنة من المقالات لم يرضَ عنها بعد ذلك ... فما هي في أدبه إلا كلمة عابرة يستطيع أدبه المحيط أن يبتلعها فلا يبين لها أثر. إن طه حسين الروائي، وطه حسين صاحب الكتب الإسلامية، وطه حسين صاحب النقد المتفرد، وطه حسين الذي فتح النوافذ مع إخوانه على الأدب العربي، وطه حسين الذي خرَّج الأدب العربي الحديث؛ يستطيع أن يقول إنه أخطأ في شبابه، ونستطيع نحن أن نرحب باعتذاره، وكم أديب أقل حجمًا من طه حسين أخطأ ثم أبى أن يقول إنه أخطأ!

حين وُلدَت الرواية المصرية الحديثة على يد أستاذنا المغفور له الدكتور محمد حسين هيكل، وُلدَت كالطفل اللقيط الذي يتخفى أبوه من أبوَّته؛ فقد مهرها الدكتور هيكل بتوقيع مصري فلاح. ولم يكن هذا غريبًا، ولا لوم على أستاذنا ولا تثريب، فلم يكن الدكتور هيكل يعدُّ نفسه أن يكون روائيًّا، بل هو مهيأ لأن يكون كاتبًا سياسيًّا وكاتبًا مفكرًا، ولعله في ذلك الحين لم يكن يفكر أنه سيصير من أعظم مؤرخي السيرة النبوية إن لم يكن أعظمهم. وكانت حكايات أبي زيد الهلالي سلامة والزناتي خليفة تملأ المقاهي على الربابة في ذلك الحين، ولعله خشي أن يرميه خصومه السياسيون بأنه شاعر ربابة يروي الحواديت. وما أكثر ما اختلق خصوم هيكل عليه من أكاذيب! وعلى أية حال لم تكن نظرة هذا الجيل إلى الرواية نظرة الإجلال والإكبار التي تتمتع بها الرواية اليوم، ولعلي لم أعرف أحدًا كان يُجلُّ الروائيين ويُكبِرهم من هذا الجيل، أو من الجيل الذي تلاه، إلا أبي رحمه الله؛ فقد كان يحب الرواية ويُجِلُّ كتَّابها، ولعل هذا يرجع إلى تشرُّبه للثقافة الفرنسية مع ثقافته العربية. ولا شك أن الدكتور هيكل كان يعرف قيمة الكاتب الروائي في الأدب عامة، فإن قليلًا من الناس تهيأ له من الثقافة ما تهيأ للدكتور هيكل؛ فقد نال ليسانس الحقوق قسم اللغة الإنجليزية ثم درس الدكتوراه وقدمها باللغة الفرنسية؛ فهو إذن يجيد اللغتين إجادة تامة، ومثله لا يجهل قيمة الأدب الروائي ولا الكاتب الروائي،

ولكنه مع ذلك تحرج أن يكتب اسمه على أول رواية له، بل أول رواية في الأدب العربي كافة. ولست أنسى يومًا دعيت فيه أن أجلس إلى أستاذنا الكبير الدكتور هيكل، لتسجيل حديث لمحطة الشرق الأدنى، وكانت فكرة الحديث أن يجلس الدكتور هيكل إلى واحد من تلامذته، وسأل مقدم البرنامج الدكتور: لقد بدأت معاليك بالرواية، ثم اشتغلت بالسياسة والتاريخ، ثم عدت إلى الرواية مرة أخرى في هكذا خلقت؟

وإذا بالدكتور هيكل يقول في هدوء وبساطة: حين عُزلت وحُرمت حقوقي السياسية رجعت إلى الرواية، وأؤكد لك أنني حين أستعيد حقوقي السياسية فسوف أترك الرواية وأعود إلى حياتي السياسية مرة أخرى.

وأذيع الحديث.

على أية حال، ومهما تكن الأسباب، فقد وُلدَت الرواية المصرية مجهولة الأب رسميًّا، وإن كان الجميع قد عرفوا أباها حين ولادتها. ولم تصبح الرواية أصيلة النسب في الأدب العربي إلا حين كتبها طه حسين وتوفيق الحكيم والمازني وتيمور.

وكتاب الأيام للدكتور طه تعارف الناس بشأنه فيما بينهم أنه سيرة ذاتية؛ لأن الناس تبينوا فيه الدكتور طه وزوجته وابنه وابنته وإخوته وذويه، وهو لم يحاول أن يخفي شيئًا من ذلك، ولكن لا نستطيع أن نضعه مع السيرة الذاتية بغير مناقشة؛ فقد تكلم الدكتور طه عن الفتى بصيغة الشخص الثالث؛ فهو لم يقُل أنا، وإنما روى قصة ذلك الفتى كما نروي أية قصة عن بطلٍ ما نصنعه بخيالنا؛ ليحمل إلى الناس ما نريد أن نقول؛ فهو يبدأ كتابه «الأيام» كما يبدأ أيُّ قاصٍّ قصته.

«لا يذكر لهذا اليوم وقتًا بعينه، وإنما يقرِّب ذلك تقريبًا. وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو عشائه. يرجح ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقى في ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف، الذي لم تذهب به حرارة الشمس. ويرجح ذلك لأنه على جهله حقيقة النور والظلمة يكاد يذكر أنه تلقَّى حين خرج من البيت نورًا هادئًا خفيفًا لطيفًا، كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه. ثم يرجح ذلك لأنه يكاد يذكر أنه حين تلقى هذا الهواء وهذا الضياء لم يُؤْنِس من حوله حركة يقظة قوية، وإنما آنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه. وإذا كان قد بقي له من هذا الوقت ذكرى واضحة بينة لا سبيل إلى الشك فيها، فإنما هي ذكرى هذا السياج الذي كان يقوم أمامه من القصب، والذي لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات قصار. هو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس.»

فهو إذن يريد أن يقدم إليك حياته كقصة. وعلينا، نحن القراء، أن نستقبل هذا العمل كقصة؛ لأن مؤلفها يريد لها ولنا ذلك. قد نعرف الأبطال ونتبين حقيقتهم؛ لأننا عايشنا الدكتور طه وعايشنا بعضًا ممن ذكرهم في القصة، وعرفناهم عن قرب أو عن بُعد أو عن سماع. ولكن الكتاب ليس مكتوبًا لنا وحدنا، نحن أبناء مصر، ولا لنا، نحن أبناء الأمة العربية، إذا قُدِّر لأبناء الأمة العربية أن يعرفوا عن الدكتور طه ما نعرف، بل إن هذا الكتاب قد تُرجم إلى عدة لغات. وشرَّق الكتاب وغرَّب، وما أظن أن النقاد قد لاحقوه حيث ذهب ليخبروا الناس في شتى بلدان العالم أن هذا الكتاب سيرة ذاتية. وحتى لو لاحقوا الكتاب وقرَّاءه وأخبروهم أنه سيرة ذاتية لظل الكتاب مع ذلك رواية؛ لأن العمل الفني يقوم بذاته لا بتفسير الناس والنقاد له. والكتاب أيضًا ليس مكتوبًا لنا نحن أبناء هذا الجيل، وإنما المفروض في العمل الأدبي أنه يوجد ليبقى ولتتوارثه الأجيال، فإذا مات في الطريق إلى هذه الأجيال، فهذا لا ينفي أنه في أصل وجوده إنما وجد ليبقى، والموت بالنسبة إليه عارض، ولم يكن مقدورًا له يوم وُلد. وعلى كل حال فكتاب الأيام من الكتب التي تحمل تباشير بقائها إلى ما بعد فناء هذا الجيل على أقل تقدير.

فهو إذن رواية بكل ما تقوم به أركان الرواية.

وبهذه الرواية وبروايات الدكتور طه الأخرى: دعاء الكروان، شجرة البؤس، أحلام شهرزاد، أوديب، الحب الضائع، المعذبون في الأرض. وبروايات توفيق الحكيم: عودة الروح، الرباط المقدس. وبروايات المازني إبراهيم الكاتب، وإبراهيم الثاني، وميدو وشركاه، وعود على بدء. وبقصص محمود تيمور الأولى. بهذه الروايات والقصص ولدت الرواية والقصة المصرية ولادة شرعية تعرف أباها وتنتسب إليه. وحين ولدت الرواية هذه الولادة الشرعية قبل الدكتور هيكل الرجل المحافظ أن ينسب روايته إلى اسمه، فظهرت الطبعة الثانية من رواية زينب ممهورة باسمه الصريح الدكتور محمد حسين هيكل.

إذن فالأيام رواية، فماذا إذن فعلت الأيام في دنيا الرواية؟ أنا لا أنسى يومًا كنت أسير فيه مع عملاق الرواية نجيب محفوظ، منذ ما يقرب من عشرين عامًا، فقلت له: إنني أعتقد أن طه حسين في الرواية أقل منه في ميادينه الأخرى، وإذا هو يقول: لا نستطيع أن ننسى أن طه حسين قد فتح الأبواب لألوان كثيرة من الرواية العربية؛ فقد كتب صراع الإنسان مع القدر في الأيام، وكتب رواية الأسرة في شجرة البؤس، وكتب صراع الإنسان مع التقاليد في دعاء الكروان. ووجدت منطق نجيب قويًّا وصادقًا، واتجهت بتفكيري إلى هذا المتجه، وأستطيع اليوم أن أزيد أنه كتب الرواية الرمزية في أحلام شهرزاد وصراع الإنسان

مع نفسه في أوديب والأسطورة الإسلامية في على هامش السيرة. إن طه حسين فعلًا قد فجر في الرواية العربية ما لم تكن تعهده، ولنتنقل معًا في بعض رواياته.

إنه في الأيام يصور شخصية الطفل الكفيف يلتقي بالحياة، أولَ ما يلتقي بالحياة، فاقدًا بصره، ويقدم شخصية فتاه وهو يصارع الحياة جميعًا بعد أن سلبته عنصرًا من أهم عناصر كفاحه. إنه لا يرى الحياة حتى يصارعها … إنه لا يرى عدوه حتى يتقي ضرباته أو يسدد إليه الضربات. ومن عجب بعد ذلك أن يصيب العدو ويقهر الحياة ويرغمها على أن تكون في ركابه بدلًا من أن تكون من أعدائه. إنها قصة ذلك الإنسان الذي استطاع بجهده أن يصبح شكله مقبولًا لا تقتحمه العين ولا تزدريه، وأن يهيئ لابنه وابنته حياة راضية، واستطاع أن يثير في نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة، وأن يثير في نفوس ناس آخرين ما يثير من رضًا عنه وإكرام له وتشجيع.

تلك هي رواية الأيام لطه حسين … إنها هذا الصراع العاتي الذي بدهت به الحياة، فتًى طفلًا فقيرًا كفيفًا، يحيط به جهل القرية، ويحاصره من كل جهاته، ثم يصبح مع ذلك إلى ما صار إليه وهو في ريعان العمر وريق الشباب.

إنها قصة أوديب الملك الذي صارع القدر وفقأ عينيه، وإن كان الفتى قد صارع القدر بعد أن فقد عينيه. لا صلة بين الروايتين في التفاصيل والأحداث، ولكن الروايتين تصدران عن منبع واحد؛ كلا البطلين صارع القدر. وأظن أن أستاذنا لم ينسَ هذه المقارنة وهو يجعل راوي القصة يقول لابنة الفتى الذي يروي عنه: «نعم يا ابنتي! لقد عرفت أباك في هذا الطَّور من حياته، وإني لأعرف أن في قلبك رقة ولينًا، وإني لأخشى لو حدثتكِ بما عرفت من أمر أبيكِ حينئذٍ أن يملككِ الإشفاق وتأخذكِ الرأفة فتجهشي بالبكاء.

لقد رأيتكِ ذات يوم جالسة على حجر أبيك وهو يقص عليك قصة «أوديب ملكًا»، وقد خرج من قصره بعد أن فقأ عينيه لا يدري كيف يسير، وأقبلت ابنته أنتجون، فقادته وأرشدته. رأيتكِ ذلك اليومَ تسمعين هذه القصة مبتهجةً من أولها، ثم أخذ لونكِ يتغير قليلًا … قليلًا، وأخذت جبهتكِ السمحة تربدُّ شيئًا فشيئًا، وما هي إلا أن أجهشتِ بالبكاء وانكببتِ على أبيك لثمًا وتقبيلًا، وأقبلت أمكِ فانتزعتك من بين ذراعيه، وما زالت بكِ حتى هدأ روعكِ. وفهمت أمكِ وفهم أبوكِ وفهمت أنا أيضًا أنكِ إنما بكيتِ لأن أوديب الملك كان كأبيكِ مكفوفًا لا يبصر ولا يستطيع أن يهتدي وحده؛ فبكيتِ لأبيكِ كما بكيتِ لأوديب.»

ويقول راوي القصة قبل ذلك مجمِلًا ذلك العنت الذي لاقاه الفتى:

«لقد كان أبوكِ ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على خبز الأزهر، وويل للأزهرين من خبز الأزهر! إن كانوا ليجدون فيه ضروبًا من القش وألوانًا من الحصى وفنونًا من

الحشرات. وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز الأسود إلا في العسل الأسود، وأنتِ لا تعرفين العسل الأسود، وخير لكِ ألا تعرفيه.»

ذلك بعض من العناء أجمله الراوي إجمالًا، وربما فصَّله بعد ذلك في أجزاء الأيام الأخرى، قد أصبح من الشهرة بحيث لا يحتاج إلا إلى الإشارة والعناء الأكبر ذلك الذي يقوله راوي القصة حين يقول: «كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه وخامس أحد عشر من أشقَّته، وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكانًا خاصًّا يمتاز من مكان إخوته وأخواته، أكان هذا المكان يرضيه؟ أكان يؤذيه؟ الحق أنه لا يتبين ذلك إلا في غموض وإبهام، والحق أنه لا يستطيع الآن أن يحكم في ذلك حكمًا صادقًا. كان يحس من أمه رحمة ورأفة، وكان يجد من أبيه لينًا ورفقًا، وكان يشعر من إخوته بشيء من الاحتياط في تحدُّثهم إليه ومعاملتهم له. ولكنه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه شيئًا من الإهمال أحيانًا، ومن الغلظة أحيانًا أخرى. وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئًا من الإهمال أيضًا والازورار، من وقت إلى وقت. وكان احتياط إخوته وأخواته يؤذيه؛ لأنه كان يجد فيه شيئًا من الإشفاق مَشوبًا بشيء من الازدراء.

على أنه لم يلبث أنْ تبين سبب هذا كله؛ فقد أحس أن لغيره من الناس عليه فضلًا، وأن إخوته وأخواته يستطيعون ما لا يستطيع، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له، وأحس أن أمه تأذن لأخواته وإخوته في أشياء تحظُرها عليه، وكان ذلك يحفظه. ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى حزن صامت عميق؛ ذلك أنه سمع إخوته يصفون ما لا علم له به؛ فعلم أنهم يرون ما لا يرى.»

مسكينٌ ذلك الفتى، لقد استقبلته الحياة بالهول أيِّ هول، وأرادت منه مع ذلك أن يصارعها. لكَمْ شقيَ بطل رواية الأيام بذلك المكان الخاص الذي يمتاز به من مكان إخوته وأخواته! ولكَم شقيَ برحمة أمه ورأفتها، وبلين أبيه ورفقه، وباحتياط إخوته في معاملتهم له! وشقي نفس الشقاء بإهمال أمه أحيانًا، وغلظتها في أحيان أخَر، وبإهمال أبيه وازوراره من وقت إلى وقت! وشقي نفس الشقاء، بل أكثر، إن كان هناك أكثر، بإشفاق إخوته وأخواته ذلك المَشوبِ بشيء من الازدراء.

أفانين من الشقاء وألوان من الألم في مطالع الحياة التي يستقبلها الأطفال، كلُّ الأطفال، لينًا ولهوًا وبُلَهْنيَةً وسعادة وأملًا واطمئنانًا.

وتمضي به الحياة لا تعفيه، فيروي عن أخيه الذي أعطاه نظارة واستردها، وهو نفسه من كان يقتر عليه لينال من نفقته الضئيلة، ويمتع نفسه بها مرتاح الضمير هادئ النفس. ويروي عن الحرب شنَّت عليه لأنه دعا إلى حرية الرأي … ويروي … ويروي …

وتستمع الأيام لما يروي، وترضخ الأيام لعزمه وتلين لجبروته، وهو يغزوها مُطمئنًّا أنه يحمل في نفسه شيئًا يريد أن يقدمه للعالم ويقدمه، ويبلغ من الأيام ما يريد لنفسه أن يبلغ.

فأي صراع مع القدر أقوى من هذا الصراع! وأي رواية تستطيع أن تضم في أحنائها أشجار الإسنان مع الحياة قدر ما ضمت رواية الأيام!

فإذا انتقلنا إلى رواية دعاء الكروان وجدنا ذلك الصراع بين البيئة والإنسان، وإن كان الإنسان قد انتصر في رواية الأيام، فإن البيئة والمجتمع قد انتصرا في دعاء الكروان. والواقع أن المجتمع وإن كان جزءًا من الحياة إلا أنه أقوى من الحياة. ولست بناقل لك تلخيصًا لرواية دعاء الكروان، صغُر هذا التلخيص أو كبر، وإنما هي الإشارة العابرة ثم نمضي. فإن لم تكن قد قرأت الرواية فأنت مقصر في حق نفسك، وإن شئت فالتمسها فإنك واجدها؛ فكتب طه حسين لا تنفَد من الأسواق لأن المطابع تطبعها دائمًا؛ لتواجه بها مطالب الأجيال الثقافية من القراء.

وقد كان آخر اتفاق مع الدكتور طه هو ذلك الذي تم بينه وبين دار الكتاب اللبناني، التي طبعت كل أعماله في خمسة عشر مجلدًا، وقد كان عجيبًا أن تقوم لبنان بذلك ولا تقوم مصر! ولعل الأعجب من ذلك أن أعجب أنا؛ فإن شيئًا لم يعُدْ عجيبًا في بلدنا.

على أية حال فالرواية لا تحتاج إلى تلخيص، والعمل الفني بطبيعته غير قابل للتلخيص، ولكن الرواية في أسلوبها الشاهق الناصع تقدم لك مأساة فتاة تصارع تقاليد الصعيد، وويل لأهل الصعيد من تقاليده! وويل للصعيد من تقاليد أهله!

والدكتور طه يقول في الصفحات الأولى من الرواية على لسان الفتاة التي تروي القصة: «لبيك! لبيك أيها الطائر العزيز! ما زلت ساهرة أرقب مَقدَمَك وأنتظر نداءك، وما كان ينبغي لي أن أنام حتى أحس قربك وأسمع صوتك وأستجيب لدعائك، ألم أتعوَّد هذا منذ أكثر من عشرين عامًا؟

لبيك! لبيك أيها الطائر العزيز! ما أحبَّ صوتَك إلى نفسي إذا جثم الليل، وهدأ الكون، ونامت الحياة، وانطلقت الأرواح في هذا السكون المظلم آمنةً لا تخاف، صامتة لا تسمع! إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتًا لروح من هذه الأرواح، ليذكرني روح هذه

الأخت التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة الرهيبة. وفي ذلك الفضاء العريض الذي لم يكن من سبيل إلى أن يسمع الصوت فيه مهما يرتفع، ولا أن يجيب المستغيث فيه لمن استغاث.

لبيك! لبيك أيها الطائر العزيز! ادنُ مني إن كان من أخلاقك الدنو، وأْنس إليَّ إن كان من خصالك الأنس إلى الناس، واسمع مني وتحَّدث إليَّ، وهلم نذكر تلك المأساة التي شهدناها معًا، وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التي أُزهقت، وعن هذا الدم البريء الذي سُفك.

فلم نزد حينئذٍ على أن بعثنا صيحات ترددت في ذلك الفضاء العريض، لكنها لم تبلغ أذنًا ولم تصل إلى قلب، وإنما صعدت إلى السماء حين هوى ذلك الجسم الجميل الممزق في تلك الحفرة التي أُعدَّت له إعدادًا، ثم هيلَ الترابُ وسوِّيت الأرض، وأنت تدعو ولا من يستجيب، وأنا أستغيث ولا من يغيث، وامرأة متقدمة في السن قد انتحت ناحيةً وجلست تذرف دموعها في صمت عميق، ورجل متقدم في السن قد قام غير بعيد يسوي الأرض ويصب عليها الماء ويردها كما كانت، ثم ينتحي قليلًا ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب، ثم يرتفع صوته آمرًا أنْ هلم؛ فقد آن لنا الآن أن نرتحل.

منذ ذلك الوقت تم العهد بينك وبيني أيها الطائر العزيز، على أن نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل؛ حتى نثأر لهذه الفتاة التي غودرت في هذا الفضاء، ثم نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد أن نظفر بالثأر، ليكون في ذكرنا إياها وفاءٌ لهذه النفس التي أُزهقت، ولهذا الدم الذي سُفك، ورضًا عن الانتقام، وقد ألمَّ بالآثم المجرم وردَّ الأمر إلى نصابه، وأراح هذه النفس التي ما زالت تطلب الريَّ حتى تظفر بالثأر من الذين اعتدوا عليها.

لبيك! لبيك أيها الطائر العزيز! إنا لنلتقي كلما انتصف الليل منذ أعوام وأعوام فندير بيننا هذا الحديث، أفتَدَعُني أقُصَّ أطرافًا منه على الناس؛ لعلهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن تُزهق، والدماء البريئة من أن تُراق؟»

ويستطيع النقاد أن يوجهوا إلى هذه الفقرة، بل إلى الرواية كلها من خلال هذه الفقرة، ما يشاءون من نقد، فهم يستطيعون مثلًا أن يقولوا ما هذا الجرس اللفظي الموسيقي المحكم؟ وكيف يتأتى لفتاة في أعماق الصعيد أن توقع هذا الكلام العذب الذي توشك مقاطعه أن تكون شعرًا؟ ليس هذا الحديث حديث الفتاة، وإنما هو حديث طه حسين. لا واقعية في هذه القصة، إنما هي محاضرة يلقيها الدكتور طه حسين الأستاذ الجامعي على قرَّائه.

وقد قالوا هذا فعلًا أو قريبًا من هذا. وهؤلاء النقاد يحمِّلون الواقعية فوق ما تحتمل، فإن أحدًا لم يقل إن الواقعية نقل من الواقع، فالكاتب ليس مصورًا فوتوغرافيًّا، وإنما هو قصَّاص، والذي ينقل الواقع هو المصور الفوتوغرافي أو الصحفي الأمين، ويندر بين قصص الحياة ما يحتمل النقل بلا تحريف. إن وظيفة القصاص الواقعي أن ينقل عن الحياة لا قصصها، وإنما واقعها. فالحدث واقعي إذا كان قابلًا للوقوع في الحياة. فالواقعية مذهب طور الرومانسية التي كانت تحفل بالمبالغات في التسامي أو الشرور، ونقل الحياة كما يمكن أن تكون الحياة. وهناك قصص كثيرة يراها القصَّاص وقد ألفتها الحياة، ومع ذلك لا يستطيع القاص أن ينقلها إلى الفن؛ لأن الفن سيجفوها ويرفضها، فهي خالية من المنطق. فالحياة حين تؤلف لا تُعنى في كثير أو قليل بمنطق المتفرج أو رأي النقاد أو نظام الحياة نفسه. إنما القصة التي تؤلفها الحياة هي قصة تكسر طبيعة الأمور ومجرى الحياة العادي، تفتعل من الأحداث ما لا يقبله منطق ولا عقل، بينما القصَّاص لا يجرؤ أن يجاريها في هذه الجرأة على طبيعتها. والعجب أن وظيفة القاص تظل مع ذلك، وبعد ذلك، هي أن ينقل أحداثًا غير طبيعية، على أن ينقل معها منطقها الذي يسوغها للقارئ ويجعلها مقبولة عنده، وهذه هي الواقعية، وهي بعد ذلك قد تحمل رأي الكاتب صريحًا أو مهموسًا. ولكن لا بد أن يتدثر هذا الرأي بالعمل الفني. فالقصة في الواقع — في رأيي — عبارة عن انعكاسين؛ الأول هو انعكاس الحياة أو أحداث معينة وأشخاص بذواتهم من الحياة، على نفس الكاتب، ثم انعكاس هذه الأحداث وأولئك الأشخاص وقد تضافروا في تكوين عمل قصصي فني من نفس الكاتب إلى قرائه. وفي هذا الانعكاس الثاني لا بد أن يرى القارئ كاتبه باللون الذي عرفه، إن كان كاتبًا معروفًا، أو باللون الذي اختاره الكاتب لفنه، أو فُرض عليه بحكم ثقافته. وهكذا يختلف طه حسين عن المازني عن توفيق الحكيم عن هيكل عن تيمور عن نجيب محفوظ عن السباعي عن عبد الرحمن الشرقاوي عن عبد القدوس عن عبد الحليم عبد الله.

ثم هناك بعد ذلك نوع من الخداع البريء المتفق عليه بين القارئ والكاتب. فالقارئ يعلم أن الكاتب لا يروي له تاريخًا، وإنما هو يقص عليه قَصصًا يريد به أن يقول شيئًا له. فالقارئ يُقبل على كاتبه إذا استطاع أن ينسيه أن ما يحكيه له خيال لم يقع في واقع الحياة، والكاتب يعلم هذا عند قارئه؛ فهو يحاول ما وسعه الجهد أن يقدم فنه وكأنه أمر واقع، يحاول ما وسعه الجهد أن يُنسي القارئ أن ما يرويه له هو انعكاسه الفني. فالقارئ إذن لا ينتظر من قصَّاصه الصدق في الحكاية، وإنما ينتظر منه الصدق

في الفن، والطريق إلى هذا ليس هو التهافت في الأسلوب، كما يظن البعض، وليس العامية في الحوار، كما يظن البعض الآخر، فكل هذه تفاصيل يلجأ إليها الشداة الجدد الذين لم يتكون لهم أسلوب بعدُ ولا يطيقون أن يديروا الحوار بالعربية البسيطة. إن الطريق إلى ذلك أن يكتب الفنان نفسه وهو يكتب ولا ينظر إلا إلى نبض قلبه هو لا نبض قلب غيره. فلو أن إحسان عبد القدوس كتب دعاء الكروان وكتب هذه الفقرات التي سقتها إليك، لَمَا أقبل قارئه عليه، ولا أقبل عليه أيضًا قارئ طه حسين. إن هذه الفقرات التي سُقتها إليك هي طه حسين، ولا يمكن أن يكون طه حسين إلا هكذا.

وقد يقول بعض آخرون من النقاد إنه في هذه الفقرات قد كشف روايته، فانتقص من التشويق إليها. وهذا أيضًا مردود عليهم، فالتشويق قائم، واجتذاب القارئ موهبة مضمرة، وسر لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. فقد ترى القصة وقد اكتملت فيها جميع الشروط التي وضعها النقاد، ولكن القصة ومع ذلك تفتقد الجاذبية فتفقدها. إن هذه الصلة التي تحدث بين القارئ والكاتب هي من أسرار الموهبة التي يجاهد النقاد أن يكتشفوها، ولكنهم يرتدون عنها عاجزين أشبه ما تكون بسر الروح لا يعلمها — كما قلت — إلا الله سبحانه وتعالى. أما التشويق في ذاته، وهو جانب من جوانب الجاذبية في العمل الفني؛ فقد حاول بعض الكتَّاب في أوروبا أن يُلغوه من العمل القصصي، فباء قصصهم بالفشل، وهناك كاتب إنجليزي كبير كتب رواية تُدعى — فيما أذكر — السفينة (The ship)، وكان يضع ملخصًا لكل فصل في بدايته، ولكنه لم يستطع — رغم جهده — أن يُلغي التشويق؛ فقد قرأت هذه الرواية، وكنت بعد أن أقرأ الملخص أحب أن أعرف التفاصيل، وبهذا بقي عنصر التشويق قائمًا، ونجحت الرواية نجاحًا ساحقًا.

فليس على أستاذنا من بأس أن يومئ إلى بعض من أحداث روايته في أول الرواية، فما زال بنا شوق أن نعرف كيف حدث هذا الذي يومئ إليه.

وقد يقول بعض النقاد إن هذا الأسلوب الجميل قد يصرف القارئ عن أحداث الرواية ليستمتع بالأسلوب. وهذا تخريف؛ فالثوب الجميل يزيد الشخص الجميل الذي يلبسه جمالًا. ولا يمكن أن تنصرف عيناك عن جمال الشخص إلى جمال ملابسه، بل إن جمال كلٍّ منهما يزيد الآخر تألقًا وإشراقًا. وما أجمل أن تقرأ قصة في موسيقى أسلوبية كهذه التي يعزف بها طه حسين حين يكتب!

ولا شك أن كثيرًا من النقاد سيقولون إن هذه الجمل الوعظية التي جاءت في آخر الفقرة تتنافى مع هدف العمل الفني جميعًا، فالمفروض أن الموعظة — إن كان لا بد أن

تكون هناك موعظة — تُستَشف من العمل الفني في جملته بغير تصريح، فإن صرحت انتقل العمل الفني من القصة إلى المقالة. وقد يصيبون بعض الحق إن قالوا هذا، ولكن لو تذكرنا أن هذه الرواية قد كُتبت في عام ١٩٣٤م، وهي من أوائل الروايات التي نقلت الفن الروائي إلى عالم الواقعية، ولو تذكرنا أن قرَّاء هذه الفترة لم يكونوا قد مَرَنوا بعدُ على قراءة الرواية، لقَبِلْنا من أستاذنا هذا الذي كتبه؛ فقد كان يمهد الطريق، فلا عليه إن هو ترفَّق بالقارئ وهو يجتذبه إلى طريق جديدة عليه لم يتعود السير فيها.

ولو لم يفعل هذا أستاذنا الدكتور طه حسين لاضطر أن يفعله أستاذنا نجيب محفوظ؛ فإن نجيبًا كتب بالاكتمال الذي كتب به حين وجد أن الطريق قد مهد بأقلام سابقيه من العمالقة الرواد؛ هيكل وطه والحكيم وتيمور والمازني.

وفي رواية أوديب ينتقل الدكتور طه إلى لون آخر من ألوان الصراع لعله من أدق ألوانه وأكثرها احتياجًا إلى الفنية والمعرفة بأحناء النفس الإنسانية وطواياها، فهو يرسم صراع الإنسان مع نفسه … ذلك الصراع بين ما يريد الإنسان أن يكون وبين ما يستطيع أن يكون. كيف يدور الصراع بين آمال الإنسان ومكناته، وبين طموحه ونزعات نفسه. والرواية ترسم شخصًا بذاته عرفه الدكتور طه وصاحبه وذكر لي اسمه، وإني لمخفٍ هذا الاسم، بل إني حتى قد نسيته؛ لأنه طلب إليَّ ألا أذيع اسمه بين الناس، وأنا أنسى السر إذا استودِعْتُه؛ حتى لا تخالجني نفسي أن أعلنه. ولكن الذي أذكره أن الدكتور كان يحب هذا الرجل حبًّا عميقًا، وكان يكبره ويعتز بصداقته، ولعل حديثه إليه في تقديم الكتاب يُظهِرك على مبلغ ما يكنُّه له من حب وإكبار.

«أخي العزيز، وددت لو أسميك ولكنك تعلم لماذا لا أسميك. وحسب الذين ينظرون في هذا الكتاب أن يعلموا أنك كنت أول المعزِّين لي حين أخرجني الجور من الجامعة، وأول المهنئين لي حين ردني العدل إليها. وكنت بين ذلك أصدق الناس لي ودًّا في السر والجهر، وأحسنهم عندي بلاءً في الشدة واللين. فتقبل مني هذا العمل الضئيل تحية خالصة صادقة لإخائك الصادق الخالص.»

والدكتور طه في هذه الرواية يختار الرواية على لسانه هو، فهي إذن مروية بلسان المتكلم، وهو بهذا يقطع الطريق على المتنطعين من النقاد أن يقولوا شيئًا يتصل بجمال الأسلوب؛ فإن طه حسين هو الذي يروي. والرواية بلسان المتكلم تتيح للقاص أن يتدخل كما يشاء في القصة؛ فهو باختياره لهذه الطريقة يفسح لنفسه أن يلقي بما يشاء من آراء من داخل العمل الفني، وإن كانت تقف به عن مجال هائل يتمتع به الراوي الذي

يتحدث عن الغائب، أي بصيغة الشخص الثالث كما يقول الغربيون، فهو الذي يروي عن الغير، يستطيع أن يروي وهو عالم بكل شيء كما تعرِّفه اللغات العالمية «العالم بكل شيء» omniscience.

أما الشخص الأول فيروي ما يعرفه فقط — أي إنه يروي من القصة ما اتصل به وحده، فإذا ذكر حادثًا لا يتصل به اضطر أن يتلمس وسيلة يبلِّغ بها القارئ كيف اطلع على هذا الحدث الذي وقع بعيدًا عنه. والكاتب صاحب الأسلوب المتألق يستطيع أن يفسح لقلمه وأسلوبه المجال إذا اختار صيغة المتكلم؛ لأن طبيعة هذا النوع من الرواية تتيح للكاتب أن يتدفق تدفقًا أسلوبيًّا دون حرج. وأنا لا أعتقد أن أستاذنا الدكتور قد اختار هذا الطريق لهذه الأسباب؛ فقد كان يضرب برأي النقاد فيما يتصل بالأسلوب عرض الأفق. إنما أراد أن يكرم صاحبه ويظهِر القارئ على هذا الود الذي كان بينهما، ويهدي إلى روح صديقه هذه الرواية تحية حب وإجلال وإكبار. وهكذا يبدأ الدكتور طه روايته، وكأنما يبدأ كتابًا يبحث في شأن الأديب وما يعانيه من حياته وما تعانيه منه الحياة، حتى يصل إلى صاحبه فيبدأ قصته عنه أو قصته معه إذا شئت.

«زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس، فهو لا يحس شيئًا إلا أذاعه، ولا يشعر بشيء إلا أعلنه، وهو إذا نظر في كتاب أو خرج للتروض أو تحدث إلى الناس فأثار شيء من هذا في نفسه خاطرًا من الخواطر، أو بعث في قلبه عاطفة من العواطف، أو حث عقله على الروية والتفكير، لم يسترحْ ولم يطمئنَّ حتى يقيد هذا الرأي أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر في دفتر من الدفاتر أو على قطعة من القرطاس.»

ذلك لأنه مريض بهذه العلة التي يسمونها الأدب؛ فهو لا يحس لنفسه وإنما يحس للناس، وهو لا يشعر لنفسه وإنما يشعر للناس، وهو لا يفكر لنفسه وإنما يفكر للناس، وهو بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للناس. وهو حين يأتي من الأمر هذا كله يخادع نفسه أشد الخداع ويضللها أقبح التضليل. فيزعم أنه مؤثر لا يريد أن يستمتع وحده بنعمة الإحساس والشعور والتفكير. إنما يريد أن يشرك الناس في هذا الخير الذي أنتجته طبيعته الرقيقة الخصبة الغنية، فإذا كان متواضعًا معتدل الرأي في نفسه، فهو شقي تعس محزون، يحب أن يعلن إلى الناس ما يجد من شقاء وتعَس وحزن؛ لعلهم يرثون له أو يرأفون به أو يشفقون عليه. وربما لم يرَ في نفسه إيثارًا، ولم يحس أنه شقي وإنما آثَر نفسه بالخير، وأحبها قليلًا أو كثيرًا، فهو يسجل ما يحس وما يشعر

وما يفكر؛ لحفظه من الضياع وليستطيع العودة إليه من حين إلى حين، كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية. وكثيرًا ما تعرض له الفرص التي تحمله أن يستعرض حياته الماضية، والذاكرة قصيرة ضعيفة، فلِمَ لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي يتكون منها تاريخه الفردي الخاص ليعود إليه كلما دعاه إلى ذلك جدُّ الحياة أو هزلها؟

وما أكثر ما يدعو جد الحياة أو هزلها إلى أن يستعرض الإنسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من أحداث.

يخدع الأديب نفسه هذه الضُّروبَ من الخداع، يعللها بهذه الألوان من التعلَّات، وحقيقة الأمر أنه يكتب لأنه أديب لا يستطيع أن يعيش إلا إذا كتب. يكتب لأنه محتاج إلى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن؛ لأنه محتاج إلى الطعام والشراب والتدخين. وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب. وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس أو يجري به القلم، كما أنه حين يأكل ويشرب قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ. إنما هي حاجة تضطره إلى الحركة فيتحرك، وتدفعه إلى العمل فيعمل. فأما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها في يوم من الأيام، حين تصبح أمرًا مقضيًّا لا مُنصرَف عنه ولا سبيل إلى التخلص منه.

إذا كان هذا كله صحيحًا، وأكبر الظن أنه صحيح، فيجب أن يكون صاحبي الذي أريد أن أتحدث إليك عنه أديبًا، فلست أعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت إليهم رجلًا أضْنَتْه علة الأدب واستأثرت بقلبه ولُبِّه كصاحبي هذا. كان لا يحس شيئًا ولا يشعر بشيء، ولا يقرأ شيئًا ولا يرى شيئًا ولا يسمع شيئًا، إلا فكر في الصورة الكلامية، أو بعبارة أدق: في الصورة الأدبية التي يظهر فيها ما أحس وما شعر وما قرأ وما رأى وما سمع.»

وهكذا وببراعة فائقة تبدأ الرواية وتمضي فصولها، لتروي لك عن هذا الصديق، وكأنما لا يقصد الدكتور طه إلا أن يروي عن هذا الصديق، وقد يرى قارئ طيب أن الدكتور طه لم يُرِد إلا أن يروي عن صديقه هذا ويكرم حياته بعد مماته، ولكن هذا القارئ الطيب إن أنعم النظر قليلًا لَتكشَّفَ له ما كان خفيًّا، ولاتضح له ما تلبَّسه النص من معنًى، فإذا هذا الأديب يدخل في صراع عَتيٍّ بين ما يصبو إليه وبين ما يحن إليه؛ فهو يصبو إلى الجِد ويحنُّ إلى المتعة. وصراع آخر بين ما وهبَتْه له الحياة من مكنات الصحة وبين ما يريد من الحياة أن تعطيه ... ما أقل ما نال من الحياة! وما أعظم ما كان يرجو منها!

٣

هلم بنا الآن لنتذاكر معًا كتاب طه حسين الرائع «المعذبون في الأرض»، ودعنا نتساءل أول ما نتساءل في أيِّ قسمَي القصة سندرج «المعذبون في الأرض»، أهي رواية أم مجموعة من القصص القصيرة؟

لشتاينبك عمل فني لا أستطيع أن أنسبه هو الآخر إلى الرواية ولا إلى القصة القصيرة. وقد قرأت هذا الكتاب مترجمًا؛ فقد تُرجم عدة ترجمات سُمي في إحداها مراعي السماء، وكانت هذه هي الترجمة التي وقعت عليها أنا. والكتاب عبارة عن مجموعة قصص. تبدأ بقصة عن المكان، يذكر فيها أسماء الأبطال الذين سيروي عنهم جميعًا، ولنسمهم مثلًا «زيد وعمرو وعاصم وإلهام وصفية»، حتى إذا وصلنا إلى القصة الثانية وجدنا زيدًا وقد أصبح بطل القصة بدلًا من المكان مراعي السماء، الذي كان بطلًا في القصة الأولى، ونحن في قصة زيد سنلتقي بمراعي السماء وبعمرو وعاصم وإلهام وصفية وهم يلفُّون حول البطل كشخصيات ثانوية، وفي القصة الثالثة نجد عمْرًا قد صار البطل، ونزل زيد عن البطولة ليصبح شخصية ثانوية مع الآخرين، ومع المكان وهكذا. ومنذ قرأت هذا الكتاب وأنا حائر في اختيار النوع الذي ينتسب إليه أهو رواية أم مجموعة قصص قصيرة. ولا عليه ولا علينا أن يكون أيًّا من الاثنتين؛ فهو عمل فني رائع.

والمعذبون في الأرض يقف بنا عند هذه الحيرة، وهو سابق في تاريخ صدوره على مراعي شتاينبك. فإن كانت الصلة في قصص شتاينبك هي الأشخاص، فالصلة في «المعذبون» هي الموضوع. فهم جميعًا معذبون في الأرض.

وقد ذهب بعض النقاد المذهبيين إلى أن هذا الكتاب يخدم مذهبًا بذاته؛ ولعل هذا القول هو أسخف ما قاله النقاد عن طه حسين. إنه كتاب إنساني يدق الرءوس الغارقة في الغنى، الغافلة عن الفقر، ويشق الأعين المتخمة من الكظة، والناعسة عن العيون، المتهرئة من الجوع. وهذه معانٍ إنسانية إن لم يعتنقها الكاتب فهو ليس إنسانًا؛ وبالتالي فهو ليس كاتبًا؛ لأن الكاتب بطبيعة وظيفته في الحياة هو الإنسان الشفاف الذي يشق سدوف الغيب عن المستقبل، فيدعو إلى الحذر أو يشق ما استغلق حول أحداث الماضي؛ ليبين ما خفي من معانيها وما استخفى من عِبَرها. وهذه النغمة التي شاعت في كتاب «المعذبون في الأرض» كان يكتب بها جميع الكتَّاب مهما تختلف منازع عقائدهم، ولعل محمود تيمور من أكثر الكُتَّاب كتابةً في هذا الميدان، مع أنه أبعد الناس عن العقائدية، ولكن الكُتَّاب كانوا بطبيعتهم يحاربون الطبقة الميسورة؛ لأن الغالبية العظمى منها لم تكن موطأة الأكناف للفقراء، فكان الكتاب يهزون مضاجعهم ليشركوا الفقير فيما ينعمون

به. حتى إذا أصبحت هذه الدعوى شعارًا رسميًّا وقف الكتَّاب من هذه النغمة؛ لينظروا ما الرسميون فاعلون، حتى إذا زالت الطبقة جميعًا أصبحت مهاجمتها نوعًا من الرخص المبتذل الحقير، فإن حرب الغائب جبن. وبدأت الشجاعة تتبلور في محاربة الطبقة الجديدة التي حلت مكانها أقسى ما يكون الحلول وأبشع ما يكون التبدل، والفقير على الحالين يرقب الأغنياء ويتملق عطفهم. فإن كان هناك في زمن مضى من يهزه دعاء لمحتاج أو يخشى دعوة المظلوم، فإن الطبقة التي تكونت كونت معها سياجًا، أيرد دعاء المحتاج ويتعالى عن دعوة المظلوم؟ ولكن الله لم يكن بغافل عن المعتدين، ومن لم يلقَ الجزاء فجزاؤه أمامه في الطريق، وإنه ملاقيه.

فكتاب «المعذبون في الأرض» كتاب طبيعي في فترته؛ فهو إنساني في دعوته، يصدر عن كاتب إنسان، ومرة أخرى من ليس إنسانًا فهو ليس بكاتب على أي صورة من الصور.

والمعذبون في الأرض يجمع إلى القصص الحديث القصصَ التاريخي، أتراك تريد أن نرنو معًا إلى كتاب تاريخي محض من روايات أستاذنا العظيم؟

لنصحب على هامش السيرة، تلك التي تجنَّى عليها البعض وظنوا بها أنها كتاب تاريخي، وراح بعضهم يحاسبها على هذا الأساس في سذاجة وعناء. ولو قد ألقى نظرة إلى مقدمة الكتاب، بل إلى السطر الأول من مقدمة الكتاب، لأراح واستراح، ولبدأ يبحث لهذا الكتاب عن مكان آخر يضمه إليه في المكتبة العربية.

> «هذه صحف لم تُكتب للعلماء ولا للمؤرخين، ولم أقصد بها إلى التاريخ، وإنما هي صورة عرضت لي أثناء قراءة للسيرة، فأثبتها مسرعًا، ثم لم أرَ بنشرها بأسًا. ولعلي رأيت في نشرها شيئًا من الخير، فهي ترد على الناس أطرافًا من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم، فليس يقرؤها منهم إلا أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم. وإنك لتلتمس الذين يقرءون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الإسلام، فلا تكاد تظفر بهم. إنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الأدب الحديث بلغتهم أو بلغة أجنبية من هذه اللغات المنتشرة في الشرق، يجدون في قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة، ومن اللذة والمتاع، ما يغريهم به ويرغِّبهم فيه، فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة، وفهمه أعسر، وتذوقه أشد عُسرًا، وأين هذا القارئ الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة، والأخبار التي يلتوي بها الاستطراد،

وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم والذوق الهين الذي لا يكلف مشقة ولا عناء!

ذلك أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو ثابتًا مستقرًّا، لا يتغير ولا يتبدل، ولا يلتمس الناس لذته إلا في نصوصه، يقرءونها ويعيدون قراءتها ويستظهرونها ويُمعنون في استظهارها، إنما الأدب الخصب حقًّا هو الذي يلذُّك حين تقرؤه؛ لأنه يقدم إليك ما يرضي عقلك وشعورك، ولأنه يوحي إليك ما ليس فيه، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص، ويعيرك من خصبه خصبًا، ومن ثروته ثروة، ومن قوته قوة، ويُنطِقُك كما أنطق القدماء، ولا يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك أو يصور قلبك في صورته، وإذا أنت تعيده على الناس فتلقيه إليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحيونها، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم، وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم.

هذا هو الأدب الحي. هذا هو الأدب القادر على البقاء ومناهضة الأيام. فأما ذلك الأدب ينتهي أثره عند قراءته فقد تكون له قيمته، وقد يكون له غناؤه، ولكنه أدب موقوت، يموت حين ينتهي العصر الذي نشأ فيه. ولو أنك نظرت آداب القدماء والمحدثين لرأيت فيها طائفة لا يمكن أن توصف بأنها آداب عصر من العصور، أو بيئة من البيئات، أو جيل من الأجيال؛ وإنما هي آداب العصور كلها والبيئات كلها والأجيال كلها، لا لأنها تعجب الناس على اختلاف العصور والبيئات والأجيال فحسب، بل لأنها مع ذلك تلهم الناس وتوحي إليهم، وتجعل منهم الشعراء والكتَّاب والمتصرفين في ألوان الفن على اختلافها.

وليس خلود الإلياذة يأتيها من أنها تُقرأ فتُحدث اللذة وتثير الإعجاب في كل وقت وفي كل قطر، بل هو يأتيها من هذا، ومن أنها ألهمت وما زالت تلهم الشعراء وتوحي إليهم أروع ما أنشأ الناس من آيات البيان. ولقد كان «إيسكولوس» أبو التراجيديا اليونانية يقول إنه إنما يلتقط ما يسقط من مائدة هوميروس. وما زال القُصَّاص وشعراء التمثيل والغناء في الغرب خليقين أن يقولوا الآن ما كان يقوله إيسكولوس منذ خمسة وعشرين قرنًا. ولم تكن قصص إيسكولوس وغيره من شعراء التمثيل اليوناني أقل خصبًا من الإلياذة، بل هي قد ألهمت من الكتَّاب والشعراء قديمًا وحديثًا، وما زالت قادرة على أن تلهمهم إلى اليوم وإلى الغد.

وإني لأذكر أني قرأت منذ أعوامٍ قصة تمثيلية هي الثامنة والثلاثون من نوعها، وقد سماها صاحبها «جيرودو» بهذا الرقم، فوضع لها هذا العنوان «أمفيتريون رقم ٣٨»، كانت أسطورة تتصل بمولد هرقل، فصورها سوفوكل قصة تمثيلية في القرن الخامس قبل المسيح، وما زال الشعراء والكتَّاب من اليونان والرومان والأوروبيين المحدثين يتأثرون ويذهبون مذهبه، أو غير مذهبه، في تصوير هذا الموضوع، حتى انتهت القصص التي كُتبت فيه شعرًا ونثرًا إلى هذا العدد الضخم.

ولم يُحجِم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهم سُبِقوا إليه، بل زادهم ذلك حرصًا عليه ورغبةً فيه. وكان بين الذين طرقوه الشاعر اللاتيني «بلوت» والشاعر الفرنسي «موليير»، ثم لم يشفق جيرودو من أن يطرق موضوعًا سبق إليه الفحول من شعراء التمثيل في العصور القديمة والحديثة، فصوَّر قصته هذه الثامنة والثلاثين وعرضها على النظارة في باريس سنة ١٩٢٩م، فكان فوزها عظيمًا، وإعجاب النظارة والقرَّاء بها لا حد له.

وفي أدبنا العربي على قوته الخاصة وما يكفل للناس من لذة ومتاع قدرة على الوحي وقدرة على الإلهام؛ فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تُكتب مرة واحدة ولم تحفظ في صورة بعينها، وإنما قصَّها الرواة في ألوان من القصص، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف. وقُل مثل ذلك في السيرة نفسها؛ فقد ألهمت الكتَّاب والشعراء في أكثر العلوم الإسلامية وفي أكثر البلاد الإسلامية أيضًا، فصوَّروها صورًا مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفني. وقُل مثل هذا في الغزوات والفتوح، وقُل مثل هذا في الفتن والمحن التي أصابت العرب في العصور المختلفة. ولم يقف إلهام هذا التراث الأدبي العظيم عند الكتَّاب والشعراء الذين ينمِّقون النثر ويَقرِضون الشعر في اللغة العربية الفصحى، بل جاوزهم إلى جماعة من القُصَّاص الشعبيين الذين تحدثوا إلى الناس في صور مختلفة وأشكال متباينة، بما كان لآبائهم من مجد مؤثَّل، وبما أصاب آباءهم من مِحَن مظلمة وفتن مدلهمَّة عرفوا كيف يثبتون لها ويصبرون عليها، ويخرجون منها كرامًا ظافرين. ولا خير في حياة القدماء إذا لم تُلهِم المحدثين ولم توحِ إليهم رائع البيان شعرًا ونثرًا. وليس القدماء خالدين حقًّا إذا لم يكن التماسهم إلا عند أنفسهم، ولا تعرف أنباؤهم إلا فيما

تركوا من الدواوين والأشعار. إنما يحيا القدماء ويخلدون إذا امتلأت بصورهم وأعمالهم قلوبُ الأجيال مهما يبعد بها الزمن، وكانوا حديثًا للناس إذا لقي بعضهم بعضًا، وكنوزًا يستوحيها الكتَّاب والشعراء لإحياء ما يعالجون من ألوان الشعر وفنون الكلام.

إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم، ومن إحياء ذكر العرب الأولين، قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب. ولست أريد أن أخدع القرَّاء عن نفسي ولا عن هذا الكتاب، فإني لم أفكر فيه تفكيرًا، ولا قدَّرته تقديرًا، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون، وإنما دُفعت إلى ذلك دفعًا، وأُكرهت عليه إكراهًا، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسي ويفيض بها قلبي وينطلق بها لساني، وإذا أنا أُملي هذه الفصول وفصولًا أخرى، أرجو أن تُنشر بعد حين.

فليس في هذا الكتاب إذن تكلُّف ولا تصنُّع، ولا محاولة للإجادة، ولا اجتناب للتقصير، وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب التي لا أعدل بها كتبًا أخرى، مهما تكن. والتي لا أملُّ قراءتها والأنس إليها، والتي لا ينقضي حبي لها وإعجابي بها، وحرصي على أن يقرأها الناس، ولكن الناس مع الأسف لا يقرءونها؛ لأنهم لا يريدون أو لأنهم لا يستطيعون. فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبِّب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة، وكتب الأدب العربي القديم عامة، والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة، فأنا سعيد حقًّا، موفق حقًّا لأحبِّ الأشياء إليَّ وآثرِها عندي.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى، ويلفتهم إلى أن في سذاجتها ويسرها جمالًا ليس أقل روعة ولا نفاذًا إلى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة المعقدة، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد. وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى واتخاذها موضوعًا قيمًا خصبًا، لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما، بل كذلك للإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد.

ثم إذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أن يُهجر لأنه قديم، وأن الجديد لا ينبغي له أن يُطلب لأنه جديد، وإنما يُهجَر

القديم إذا برئ من النفع، وخلا من الفائدة، فإن كان نافعًا مفيدًا فليسوا أقل حاجةً إليه منهم إلى الجديد، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد.

وأنا أعلم أن قومًا سيضيقون بهذا الكتاب؛ لأنهم محدَثون يُكبرون العقل، ولا يثقون إلا به، ولا يطمئنون إلا إليه؛ وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يُسيغها العقل ولا يرضاها، وهم يشْكون ويُلحُّون في الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار، وجِدَّه في طلبها، وحرصه على قراءتها والاستماع لها، وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول، هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء؛ لأنهم يقرءون فيه طائفةً من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس. وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملَكاتٍ أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئنَّ إليها العقل، ولم يَرْضها المنطق، ولم تستقِم لها أساليب التفكير العلمي، فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم، وميلهم إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها؛ ما يحبِّب إليهم هذه الأخبار ويرغِّبهم فيها، ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشُقُّ عليهم الحياة. وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يُقرُّها العلم، وتستقيم بها مناهج البحث، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفةٌ عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش. وأُحب أن يعلم الناس أيضًا أني وسَّعت على نفسي في القصص، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسًا، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي، أو بنحو من أنحاء الدين، فإني لم أُبِح لنفسي في ذلك حريةً ولا سَعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين.

ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب، القديم في جوهره وأصله، الجديد في صورته وشكله، إلى مصادره القديمة التي أخذ منها؛ فهذه المصادر قليلة جدًّا لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري. وليس في هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد في كتاب من هذه الكتب.

٣

فإذا اتصل الخبر بشخص النبي، فإني أردُّه إلى مصدره ليستطيع من شاء أن يرجع إليه، لا أحتمل في ذلك تَبِعة خاصة؛ لأني لا أذهب فيه مذهبًا خالصًا، إلا أن يكون تبسيطًا في الشرح والتفسير، واستنباطًا للعِبرة والوصول إلى قلوب الناس.

فليُيسِّرِ الله سبيل هذا الكتاب إلى النفوس، وليحسِّن الله موقعه في القلوب.»

طه حسين

وبعد، فإني نقلت المقدمة جميعًا لم أُسقط منها كلمة، ومن شاء أن يعرف لماذا فليُعِد قراءتها مرة أخرى، أو إن شاء فإني على استعداد أن أعيد له نقْلَها مرة ثانية وثالثة وعشرين وألفًا.

وأُقسم، وما أنا إلى القسم بمضطر، لقد حاولت أن أكتفي بالنقل عند نهاية كل فقرة، فإذا الفقرة التي تليها تجذبني إليها جذبًا فأنقلها، وما زالت المقدمة بي وما زلت بها حتى نقلتها جميعًا، بل لقد طاب لي أن أضع اسمه في نهايتها؛ فإنه هو هذا طه حسين.

تُرى هل سيتاح للمتشدقين بالآداب الغربية أن يقرءوا هذه المقدمة التي كتبها العميد، الذي أصر على أن يتعلم طلبتُه الآداب اللاتينية، والذي فجر الثورة الأدبية وثورة الحرية الفكرية في العالم العربي والإسلامي، والذي نال الدكتوراه من فرنسا، والذي تزوج فرنسية؟ تُرى أيُتاح لواحد من هؤلاء أن يقرأ هذه المقدمة؛ ليدرك أن كاتبًا ما لن يكون كاتبًا إذا لم يستظل بأدب بلاده وقومه أولًا، ثم لينظُرْ بعد ذلك إلى ما شاء من آداب أخرى؟ أنا لن أمضي في إثر سطور المقدمة لأتدارسها كلمةً كلمة؛ فهي من القوة والوضوح والإشراق بحيث يفسدها الشرح وينقصها التعليق؛ ولهذا نقلتها كلَّها.

وإنما أريد أن أخلُص منها أن رواية على هامش السيرة رواية، ولعلها تكون بداية الأسطورة في الأدب العربي. وكم أرجو ألا تكون نهاية الأسطورة أيضًا!

وبعد، فقد ذكرت لك في أكثر من مكان من هذا الكتاب أنني لا أكتب دراسة عن طه حسين؛ فهذه خطة لا أطيق السير فيها. وقد تكلمت في هذه الصفحات الأخيرة عن الرواية عند طه حسين في لمحات خاطفة سريعة؛ فأنا لست ناقدًا، وإنما أنا قارئ أروي لك ما انطبع في نفسي. ولا شك أن هناك جوانبَ لم أَلمِسْها مثل ترجماته للمسرحيات الغربية، ومقالاته السياسية التي كان يهاجم بها الحكام وهم ممسكون بالصولجان، وهناك قبل كل هذا، وبعد كل هذا، طه حسين أستاذ الجامعة الذي تخرَّج الأدب العربي على يديه.

تلك بعض جوانب لم أقترب منها؛ لأني أخشى المغبَّة أن أبدأ الخطو ثم يقصر بي القلم عن المسير.

ماذا قدمت إليك إذن في هذا الكتاب؟ أما أنا فأُقسم لك في غير تواضع، إنني أحس أنني ما قدمت شيئًا، فهل تراك تقْبَله على أنه حديث أحببت أن أسوقه إليك راجيًا أن تقبله في تفضُّل منك وتسامح؟ فإن فعلت فإني لك شاكر، وإلا فدعني أتوجه بحديثي هذا إلى أستاذي العظيم الخالد طه حسين؛ فقد كان يقبل منا كلَّ حديث في سماحة أستاذ وحنان أب.

تقبلك الله أيها العميد في أكرم رحاب، وسلامٌ عليك في الخالدين. فإن عزَّانا فيك ما تركت من آثار ضخام، فلا عزاء لنا فيك، نحن حلقةَ ندوتك، وأبناء كلمتك، ونبْتَ أدبك. لست أنساك قبل وفاتك بعام وكنا في مطالع الصيف، وتوقعت أن يكون موعد سفرك إلى أوروبا قد اقترب؛ فكلمت سليم سكرتيرك فإذا هو يخبرني أنك مسافر في اليوم نفسه بعد ساعات قلائل، وإذا هو يخبرني أنك تريد أن تراني، فوضعت سماعة التليفون لأكون عندك. وصعِدت إلى حجرة نومك، ولم أعجب؛ فقد كنت ألقاك في أغلب زيارات السنتين الأخيرتين بحجرة نومك … وكنت أجدك جالسًا في فراشك أو في كرسيك بجانب الفراش، أما في ذلك اليوم فقد كنت مستلقيًا في فراشك استلقاءً كاملًا، وحين دخلتُ إليك أحببتَ أن تُخرج يدك من تحت الغطاء الحريري لتصافحني، ووجدتك تبذل جهدًا كبيرًا لتخرج يدك هذه، فسارعتُ أُبقي يدك حيث هي، وأعيد من الغطاء ما أقلقَتْه المحاولة، وإذا أنت تقول في صوت واهن ضعيف مرتعش: «أنا تعبان قوي يا ثروت! أنا تعبان قوي!» وعجبت كيف ستسافر في يومك هذا نفسه! … لبثتُ قليلًا وانصرفتُ وأنا أخشى عليك مشقة السفر. وعُدتَ في بوادر الشتاء وقد تحسَّنت صحتك.

واستدار العام وتهيأت للسفر، وذهبت لزيارتك فوجدتك قد أعددت لي الجزء الثالث من كتابك الأيام، وعليه إهداء سأتركه لأولادي ثروةً هي أعظم ثروتهم، وانصرفت وأنا مطمئن عليك؛ فقد كنت جالسًا، وكنت تروي من الأحاديث ما ينفُذ في أغوار الزمن الماضي أربعين عامًا أو خمسين. وفي يوم من أوائل شتائنا هذا أحسست حنينًا إليك، فطلبت بيتك لأعرف إن كنت عدت، فإذا سليم يخبرني أنك كنت تتحدث عني في هذه اللحظة، وأنك تريد أن ترسل إليَّ برقية تعزِّيني في وفاة عمي عزيز باشا، وكلمتني يا رَحِمَك الله، قلتُ لك إنني لم أعلم بمجيء معاليك، وإني إنما أطلب لأعلم، فإذا أنت تخبرني أنك وصلت في يومك هذا … أتُرى خفقةٌ من روحك السامية هي التي ألهمتني أن أطلبك في يوم وصولك،

٣

ليكون آخر حديث بيننا هنا في هذه الدنيا! ... لعلها كانت كذلك، بل إنها لكذلك. وعزَّيتني — من يعزيني فيك! — وانتهت المكالمة على وعد باللقاء قريبًا، ثم جاء النبأ وسارعت إلى بيتك، ويخبرني سليم أنك كنت في المصيف بأحسن حال، وأنك قرأت كتابي الأخير عدة مرات، وكان كلما قال لك قرأناه قلت معلهش، أريد أن أقرأه مرةً أخرى، ومضيت ... لقد أكرمتني حيًّا وميتًا يا رحمك الله. ولو كان غيرك من مات لدعوت الله أن يعوضنا عنك، ولكن ما إلى تحقيق هذه الدعوة من سبيل.

ومـا هـو مَـيْـت ولـكـنـه	بشاشة دهر محاها الزمن
ومعنًى خلا القول من لفظه	وحُلمٌ تطاير عنه الوَسَن
ولو أنصف الصَّحبُ يوم الوداع	دُفِنْتَ كإسحاق لما دُفن
فغُيِّبْتَ في المسك لا في التُّراب	وأُدْرِجت في الورد لا في الكفن
سلام عليك سلام الرُّبا	إذا نفحت، والغوادي الهُتُن
سلام على جيرة بالإمام	ورهطٍ بصحرائه مرتهَن
سلام على حفر كالقباب	وأخرى كمُنْدَرِسات الدِّمَن
وجمعٍ تآلَف بعد الخلاف	وصافى وصُوفيَ بعد الضَّغَن
سلامٌ على كل طَودٍ هناك	له حَجَرٌ في بناء الوطن

أستاذي العظيم سلامًا

ثروت أباظة

القاهرة في ٣٠ / ١٢ / ١٩٧٣م



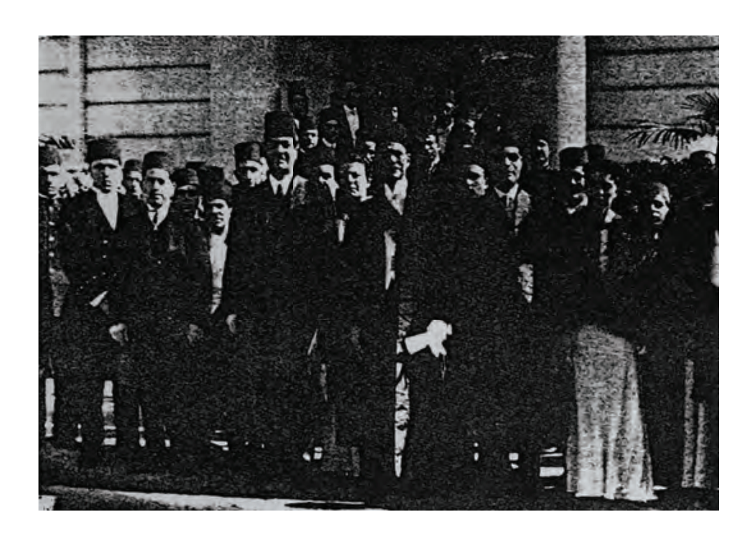
من أشهر صوره.



العميد وابنه وزوجته في حفلة لذكرى الشاعر أحمد شوقي، بالقاهرة ١٩٥٧م.



طه حسين مرتديًا رداء جامعة الإسكندرية في حفلة افتتاح الجامعة، الإسكندرية، عام ١٩٤٣م.



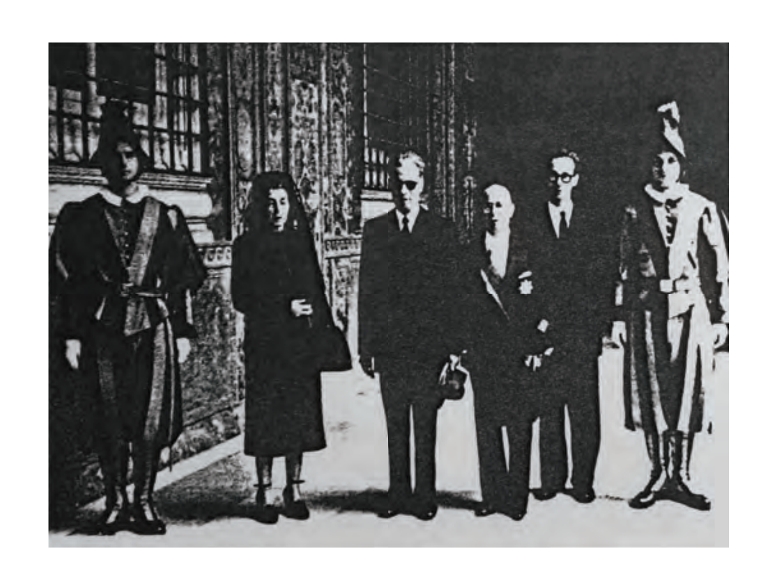
الجامعيون في افتتاح البرلمان.



الدكتور طه حسين يحتضن حفيده حسن الزيات، وفي الصورة مدام طه حسين ومؤنس طه حسين والدكتور محمد حسن الزيات.



حارس الفكر.



في رحاب الفاتيكان ١٩٥٠م.



في بيروت، لبنان «اليونسكو»، نوفمبر–ديسمبر ١٩٤٨م.



يحتضن حفيده «حسن الزيات» ولد كريمته أمينة في نادي رياض بالإسكندرية ١٩٥٠م.



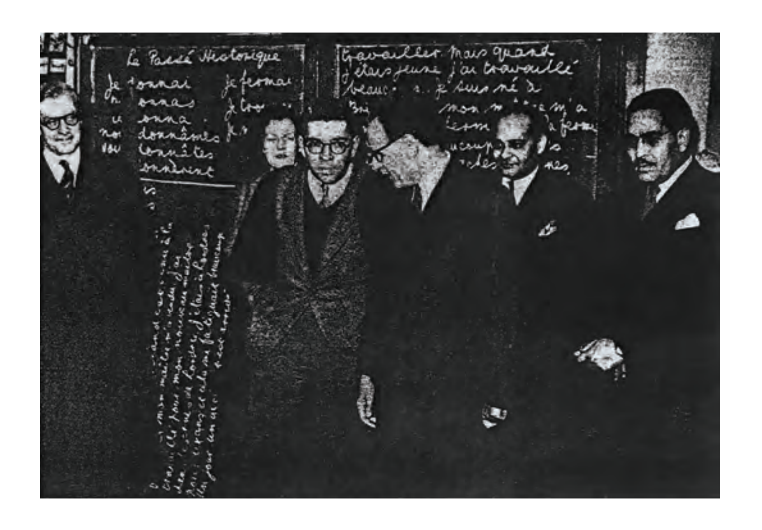
يملي على كريمته أمينة في «بيت مري» بلبنان ١٩٤٣م.



مع حرمه وحفيدته أمينة مؤنس طه حسين في ميرانو بإيطاليا، أغسطس ١٩٧١م.



في مدريد ١٩٥٠م.



في زيارة لمدرسة ثانوية ببريطانيا عام ١٩٥٠م.



في إيطاليا، أغسطس ١٩٥١م.


هنـــداوي